آيات الله الباهرات

تأليف

عاتق بن غيث البلادي

دار مكة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

عاتق بن غيث البلادي

آيات الله الباهرات

دار مكة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار مكة
للنشر والتوزيع
مكة المكرمة - ساحة إسلام
هاتف: ٥٤٤٧٤٩٤
ص.ب: ٢٩٩٢

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكر المنيب، وصلى الله وسلم على من جاء بكتاب الهدى المنزل من رب السماء، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، محفوظاً بحفظ الله ما دامت السماوات والأرض.

وعلى آله الغر الميامين، وأصحابه الذين اقتدوا بسيرته المطهرة، ونهجوا نهجه الأقوم، ودأبوا على خدمة كتاب ربه فحموه من أية شائبة تشوبه، أو غائلة تراد به.

أما بعد: فإني لا أشك في علمك أخي المسلم بما نعاني نحن المسلمين اليوم من مشاكل لا تكاد تتحملها الجبال الرواسي، فكيف ببشر يمشون على الأرض، ولا أشك ـ وأيم الله ـ في إخلاصك لأمتك ونصرتها باليد أو اللسان أو القلب.

نعم أو القلب! وما يغني القلب في هذه الهجمة المنكرة التي جعلت الأمة الإسلامية كالثوب البائد، كلما رفوت منه جانباً تهتّر من جانب آخر، فلا حر يقيه ولا برد يغني منه، وقلبك يكاد يتمزق، ولكن ما يغني قلبك يا أخي؟

لقد تكالبت علينا الأمم، ولم تتفق على شيء كاتفاقها على دس أنوف المسلمين في التراب، فلا يلحون في حل مشكلة ويستعطفون العالم

ويلحونه في ذلك حتى يفاجئهم بخلق مشكلة جديدة، نكاية وكيداً، وهم يستجدون هذه الدولة أو تلك أذلاّء كالأيتام على مآدب اللئام.

في هذا الخضم من الخطوب المتتالية، والفتن التي كقطع الليل المظلم ينظر الناس يميناً يبحثون عن بصيص من نور الله، يلقي في قلوبهم اليقين، ويبث في نفوسهم الأمل، يزيد فصيحهم فصاحة، ومؤمنهم إيماناً، وشجاعهم شجاعة... وأين يجدون هذه النعم؟ إنها بين ظهرانيهم في كتابهم، كتاب الله، أصدق مكتوب على وجه الأرض، كتاب الله الذي إذا قرأته شعرت كأن الله يكلمك، يعدك فيصدق وعده، ويوعدك فاحذره، يريك طريقك السوي، فيه خير الدنيا والآخرة، من اعتصم به عز وبذ، ومن هجره ذل وخسر، هو يريك كيف تقاتل وقت القتال، وكيف تسالم وقت السلام، حكِّمه في أُسرتك وعشيرتك وفي أمتك كل في حدود إمكانياته.

فما بال قومنا ـ وهذا الكتاب الفيصل في قلوبهم ـ يتخذون الكافرين أولياء، كل أمة تفزع إلى أمّة كافرة، تصادقها وتناصرها، تتذلل لها وتستجدي صوتها ومناصرتها في المحافل الدولية، فإذا تلك الأمة المفزوع إليها تأخذ الولاء وتعطي الهباء، بل بينما أنت تستجديه وتقدم له كل موجبات الطاعة والولاء إذا هو يعمد إلى عدوك ـ أمام سمعك وبصرك ـ فيقدم له كل الضمانات والهبات والأسلحة الفتاكة.

ألم تسمع أخي المسلم قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[1].

(١) سورة النساء: ١٤٤.

والله نصر المسلمين وهم لا يكاد يكون لهم أمر يذكر حتى سادوا الدنيا، ذلك حينما كان أحدهم قرآناً يمشي على الأرض.

من أجل ما تقدم رأيت واجباً على مثلي الإسهام بجهد المقل في تنبيه المسلمين، وتذكيرهم وتوعيتهم، وتقديم البراهين أن ما بين يديهم من تراث كان حريّاً أن يجعلهم أهدى الأمم وأقواها وأنفعها، وأن هذه الأمة كان حريّاً بها أن تكون القائدة الرائدة، ولكنهم تقسموا أمرهم وتمزق كيانهم وتشتت شملهم، وخرج فيهم عبدة الكراسي، وقتلة الشعوب، والمتحكمون في أقوات الناس، والمديرون ظهراً لكل مشكلة لا تمس أنوفهم! لقد مُسَّت الأنوف كل الأنوف، ودِيست في الرغام، ولكن:

مـن يهن يسهل الهوان عليـه   مـا لجرح في ميـت إيـلام

فهذه آيات الله الباهرات، اقـرؤوها وتمسكوا بها قال ربكم فيها، ولا شك أن حالكم ستتصلح بعد ذلك: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

وإنما الأعمال بالنيات، والله أسأل لهذه الأمة التوفيق والهداية.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

١

آيات الإبداع الخَلْقي

﴿**بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون**﴾(١).

خلق السماوات والأرض من عدم، ﴿**فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾(٢).

إن المؤمن المتفكر في ملكوت الله، وما خلق من إنسان وحيوان وما رفع من سماء وما مَهَّد من أرض، وما بث فيها من كل خلق بين بديع ناطق، وشنيع صامت، وأليف ووحشي، ونافع وضار، ومُستَخْدِم ومُستَخدَم، وسهل ووعر، لا بد أن يدرك بالفطرة السليمة والعقل الواعي المدرك، لا بد أن يصل إلى يقين لا يتزعزع، وإيمان راسخ ثابت، بأن هذا من صنع من لا يُصنَع وخلق من لا يُخْلَق، وأن الصانع فرد واحد أحد، وأنه لو كان من صنع شركاء أو جيران أو أصدقاء أو أعداء لبغى بعضهم على بعض ولذهب كل صانع بما صنع، ولكانت بينهم حدود تفتح حيناً وتغلق حيناً، ولمات بعضهم وورثه بعضهم.

ولكن الصانع واحد حي قيوم لا يموت ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١١٧.

(٢) سورة فصلت: ١١.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٣.

لا يعزب عن علمه شيء في السماء ولا في الأرض.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(١).

نعم إن في هذه لآيات باهرات، آيات للمبصرين بعيونهم، والمبصرين بعقولهم وأفهامهم، فهذه القبة الزرقاء من رفعها وهذا البساط الأخضر من مهَّده؟ وهذه الرياح التي تكون شمالاً ثم تتغير فجأة إلى جنوب، فشرق وغرب، تزجى سحاباً وتزبده ثم ينهمر ماء فراتاً، من مدبر هذا كله؟ إنه الله العزيز الحميد، إنه من تدبير من لا شريك له، فهل نحن متبصرون؟.

---

(١) سورة البقرة: ١٦٤ ـ ١٦٧.

إن الذين يعبدون من دون الله شيئاً يضرهم ولا ينفعهم، ورغم تبرئهم منه يوم الحساب فإن الفرصة قد فاتت عليهم، ولن تقبل منهم ـ يومذاك ـ توبة، أو إقرار بأن الله لا إلّه غيره. وهكذا تكون أعمالهم التي عملوها في الدنيا حسرات عليهم يوم يحصد المؤمنون ثمرة إيمانهم جنات، تجري من تحتهم الأنهار من عسل مصفى ولبن لم يتغير طعمه وفاكهة لذيذة وحور عين، ولحم طير مما يشتهون.

ففي ذلك اليوم ﴿**توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾[1].

يقول تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

ويقول عز من قال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[3].

في هذه الآية يقدم الخالق خبراً فيه العبرة والعظة، وهو أن هذا الكون العجيب الذي لا تدرك الأبصار ولا العقول كنهه، خلقه القادر الحكيم في (ستة أيام) فقط، يقول: يختبركم أيها الخلق إذا استخلفكم في هذا الخلق

---

(١) سورة البقرة: ٢٨١.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

(٣) سورة هود: ٧.

البديع، من يعمل أحسن ومن يعمل أسوأ. فأما الذين أحسنوا فلهم الحسنى؛ والسوء لمن أساء ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[1].

ثم يخبرنا الرحمن ـ جل جلاله ـ أن السماء والأرض عند أول خلقهما ما كانتا تصلحان للحياة ولا السكنى، إنما كانتا كتلتين صمّاوين، ففتّقهما وجزأهما، فرفع السماء ووطّأ الأرض، هندس وزين وسبَّب المسببات لتكون مأهولة معمورة، فتبارك أحسن الخالقين.

فقال:

﴿ **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ** ﴾[2].

ومعنى قوله: ﴿**رتقاً**﴾، أي كتلة متلازمة لا فروج لها ولا فجاج أي مسالك، فمهدها ووضع الجبال مثقّلات ﴿**رواسي**﴾ وجعل بينها مسالك للسالكين، لئلا يضل السائر فيها ﴿**لعلهم يهتدون**﴾. ثم جعل السماء بناء فوق الأرض، وحفظها من مردة الشياطين، ﴿**سقفاً محفوظاً**﴾[3] فما لهم عن هذه الآيات الكبرى والمعجزات الدالة على قدرته ومليح صنعه لا يكادون يرونها، فهم عنها معرضون.

فلما فرغ تبارك وتعالى من إنهاء هندسة هذا الكون البديع، استوى على عرشه ملكاً مالكاً متصرفاً قاهراً، له الأمر كله لا شريك ولا عوين سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الكهف: ٤٩. (٢) سورة الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٢. (٣) سورة الأنبياء: ٣٢.

ثم نظم لهذا الانارة وجعل فيه ليلاً يُسكن فيه، ونهاراً يُسعى فيه، وسبب أسباب الغيث وجعل منه الأنهار، وذرأ في الأرض من كل الثمرات وما يأكل الانسان والحيوان من كلٍّ زوجين اثنين، لتتناسل الكائنات وتنتشر فيعمر الكون.

وإن من بديع صنعه وفائق قدرته أن هذه الثمرات والجنات من شتى الألوان يسقى بماء لونه واحد وطعمه واحد، ومع هذا يختلف في اللون والطعم والفائدة، وهذا للناس وهذا للحيوان، وآخر يستطب به، ونوع سامّ، ومنه ما يتظلل فيه الانسان والحيوان، ومنه لا يكاد يرى، لكل نوع من الفوائد ما لا يوجد في غيره.

فسبحان الخالق المبدع، اللطيف الخبير.

يقول العزيز الحميد:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة الرعد: ٢ ـ ٤.

ثم يؤكد الرب جل وعلا على ما تقدم بأنه قد مد لنا الأرض فبسطها لتكون مريحة للسير والاستيطان، ثم أنبت فيها من كل شيء، فتأمل كلمة ﴿كل شيء﴾ أي مما نعلم ومما لا نعلم، مما نتعامل معه ومما لا نهتم به نمر عليه ممسين ومصبحين. وخبرنا ـ جل جلاله ـ أنه جعل رزقنا في هذه الأرض حيث نعيش ونقيم، وكذلك رزق ما دب عليها من كل حي.

ويلقي نظرة خبيرة بعباده فيرى الذين يتذمرون ويتشكون من رزقهم، وكأنهم يتهمون الغني الحميد بالتقصير في ما آتاهم، فيؤكد لهم: أن ما يتمنون ويشتهون جميعه بلا استثناء خزائنه بيده، ولكنه يعطي كل كائن بقدر ما كتب له، لمعرفته بأحوالهم وما يصلح شأنهم ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾[1]. فهو يعلم من يفسده الغنى، فإذا أراد به خيراً قدر عليه رزقه، ومن يفسده الفقر، فإذا أراد به خيراً وسع رزقه، وهو عادل لا يظلم. فيقول الخالق الرازق:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۞ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2].

ويتكرر امتنان المنان وتأكيده أنه أبدع هذا الكون وأنه يريد أن نعترف بجميل صنعه خاصة في هذه الأرض التي وهبنا إياها بعد أن خلقنا من أديمها، وأنه سهّل لنا سبل السير فيها، وجعلها مهداً ممهداً، ثم أرسل عليها السماء مدراراً فأخرج لنا مختلف الفواكه والنعم مما نأكله وتأكله أنعامنا، بهجة للناظرين ومثوبة للمقوين. فما جزاء من صنع هذا؟

(١) سورة فاطر: ٣١.

(٢) سورة الحجر: ١٩ ـ ٢١.

أنجزيه إلحاداً وكفراً؟ أنجعل معه من لا يخلق بل يُخْلَق؟ أم نفرده بالعبادة لا نشرك به شيئاً، ﴿إن الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشركَ بِه ويَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١).

بل نعبده ونوحده وندعو إلى عبادته، لتعمر هذه الجوهرة التي وهبنا إياها بالإيمان والمحبة والأَمْن والسلام، فهل نحن فاعلون؟.

يقول سبحانه:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾(٢).

ثم يعلمنا سبحانه وتعالى أن قوله المتقدم ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ هذا القول على حكمته تتجلى قدرة الله فيه، قد يمر به بعضنا غافلين، فيعود المعلم المتعال فيفصل لنا أكثر، فيقول: إنه خلق الأرض في يومين، هذا الكوكَب البديع الخيّر، يخلقه في يومين، وإن الناس ليكفرون به ويجعلون له أنداداً لا يخلقون ولا يرزقون ولا يشفون ولا ينصرون، فبئس ما عملتَ أيها الانسان.

ثم إنه لعظيم عنايته بعباده أخذ يحصن موطنهم فجعل الجبال رواسي تمسك توازن الأرض لئلا تميد بأهلها، ثم قدر في هذه الأرض ما يكفي أهلها من مأكل ومشرب، إلى يوم يلقونه، وإن هذا تم في يومين آخرين، تلك أربعة أيام خص بها مسكن عباده، وكانت السماء لا تزال دخاناً وغماماً، فقال لها وللأرض استويا كما شئتُ، لا خيار لكما، فسارعتا مذعنتين صادعتين بالطاعة، فسوى السماوات السبع في يومين، تلك ستة أيام.

---

(١) سورة النساء: ٤٨.
(٢) سورة طه: ٥٣.

وإنك إذ تقرأُ ما يقولُ العلم الحديث عن هذا الكون، ونحن نؤمن بصنع الله ولا نتحرى ما يقوله العلم الحديث، إنما نزداد إيماناً عندما يُنكِّسُ من لا يؤمن بالقرآن رأسه أمام التجارب العملية المؤيدة لما نؤمن به.

كان بعض الملاحدة يتندرون بالحديث الشريف: (بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام)، فإذا هم يعلنون قبل مدة: بأن مركبة فضائية قد قطعت مسافة (ستة مليارات كم عن الأرض) ولم تصل بعد إلى السماء الدنيا.

وقد اكتشفوا كوكباً على بعد (١٢٦٠) سنة ضوئية، بل اكتشفوا جسماً في المجرة يبعد (٢٨٠٠٠٠٠) سنة ضوئية. أرأيتم أيها المكذبون، ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ آمنوا أو لا تؤمنوا فلن تغيروا من ملكوت الله شيئاً، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[١].

---

(١) سورة فصلت: ٩ ـ ١٢.

وحتى يزيد المولى المطاع في بهرنا وتخشيع قلوبنا أخبرنا أن هذه السماء التي نراها فوقنا ليست لها دعائم ولا أعمدة ترفعها، ولكن الله ﴿**يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه**﴾(١) ولو أراد الله وقوعها ما أمسكها من أحد.

ثم يتحداناجل وعلا لنريه ما خُلق من دونه، فلا نرى حولنا إلاّ خلقه تبارك أحسن الخالقين. فاسمع قول الصادق الخالق المتحدي:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾(٢).

ويتابع الرحمن في دأب إقناع هذا البشر بالآيات التي لا يكذب بها إلاّ كل معتد أثيم، ويخبر إنها هذه الآيات يصدق بها المؤمنون، وإذا رأيتم ما خلق الله أيقنتم إن هذا صنع الواحد الأحد، ثم هذه الآيات من ليل ونهار، ومطر فيه برق ورعد، فإذا نزل عليكم استبشرتم به، وأنبت لكم ما يدر الضرع وينبت الزرع، أفلا تؤمنون؟!

وإذا لم تؤمنوا بهذا فبأي شيء تؤمنون:

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ * وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ

---

(١) سورة الحج: ٦٥.

(٢) سورة لقمان: ١٠ ـ ١١.

أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ثم يخبرنا العزيز الحكيم أن الأرض تحيا وتموت، تحيا بالغيث الذي ينزله الله من السماء، وكأنه الصلة الباقية بين السماء والأرض أو هدية السماء إلى زميلتها الأرض!

تحيا بالبشر الذين يفلحونها ويزرعون ويغرسون، تحيا بذكره وما يتعالى من المنائر من أصوات ربانية، وبتلك الصفوف المتراصة من عباد الله المؤمنين، وتحيا بهذا الدوي القرآني المنبعث من أفواه قراء كتاب الله.

وتموت الأرض بعكس ذلك كله، فهي تموت إذا هجرها سكانها، وتموت إذا توالت عليها سني المحل، تموت موت المقابر إذا عُصي الله فيها، وخفت صوت المآذن، وسكت المقرئون والمستغفرون بالأسحار.

والذي خلقها من لا شيء هو الذي يميتها ويحييها، ويقبّحها ويزينها.

قال تعالى:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[2].

فإذا أكلوا مما أنبت الله فيها فعليهم أن يؤمنوا، ولكن خالقهم البصير بسرائرهم يعلم أن كثيراً منهم غير مؤمنين، ولا شاكرين لأنعمه الظاهرة

---

(١) سورة الجاثية: ٣ ـ ٥.

(٢) سورة يٓس: ٣٣.

والباطنة، ومع هذا فهو يرزقهم من الثمرات ويمتعهم في الدنيا ليحكم عليهم الحجة يوم الجزاء والحساب. يقول وقوله الحق:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

وبعد كل هذه الحقائق التي تجعل الصخر خاشعاً متصدعاً من خشية الله، المنبئة عن تكفله بخلقه أحياء وأمواتاً، علم بعلم الغيب أن الناس سيتساءلون عندما يتكاثرون، فيقولون إن الأرض ستضيق بأهلها وسوف يزدحمون حتى يأكل بعضهم بعضاً، فيقول سبحانه: إن هذا لجهلكم بعلمي وسعة ما عندي من خزائن لا ينفد مخزونها، فيسألهم سؤالاً استنكارياً، قائلاً:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾[٢].

أبعد هذا يسأل السائلون؟ أما ترون أن أرضكم تَسع أحياءكم وأمواتكم ﴿**كفاتاً**﴾ منذ الأزل، فقد كانت يوماً ما ليس عليها سوى رجل وامرأة، وانتشرت ذريتهما في الأرض، وكلما زادوا عدداً زدنا في رزقهم، وجعلنا ظهرها ذلولاً للأحياء، وبطنها مجنة للأموات، فما ضاقت خلال رحلتكم الموغلة في القدم، أتضيق بكم اليوم؟! ونقول: معجزة الله هذه مشاهدة عياناً، فهناك أمم كانت بالأمس القريب تعد بالملايين، فكانوا

---

(١) سورة الشعراء: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة المرسلات: ٢٥ ـ ٢٧.

يرون أن أرضهم قد امتلأت، وقد أصبحوا اليوم مئات الملايين إن لم يزيدوا، ولا زالت تسعهم ويفيض عليهم خيرها، فهل من جاحد بعد هذا؟

وكأن شاعرنا العربي سمع مثل هذا في الزمن الغابر، فنفاه قائلاً:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق العباد تضيق[1]

نعم إن نفوس الناس يضيق بعضها ببعض، ويظنون بالله الظنون، حتى يعتدي بعضهم على أرض أخيه ظناً منه أنّه يزداد خيراً، وما درى المسكين أن الله قادر على أن يضاعف له رزقه في أرضه، إذا هو أطاع الله وعبده حق عبادته، وعمر هديته واستخرج خيراتها، وعمل فيها بما استخلفه ربه.

يقول جلّ من قائل:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ: سيد الدعاء الاستغفار. والاستغفار يمحو السيئات، ويجلب الرزق. وللمستغفر: من كل هم فرج ومن كل ضيق مخرج.

---

(١) هو عمرو بن إبراهيم المنقري.
(٢) سورة نوح: ١٠ ـ ١٢.

خلقتا خلقاً، وجعلتا وعاء الحياة، وملكوت الملك الديان، السماء أعلى للعالم الروحي، والأرض أدنى للعالم المادي، وجعل بينهما صلة وسفراء، وجوالين، ومحاسبين، ومقررين مخبرين، تبارك الله أحسن الخالقين.

﴿**السماء بناها* رفع سمكها فسواها**﴾(١).

ولما زين الأرض بمناظر طبيعية خلابة من جبال خضراء، وأنهار عذبة، وبحار تزخر بالخير، وحقول تفيء بالنعم من كل ما يشتهي الإنسان، عمدَ جلّ جلاله إلى السماء فزينها، فجعلها بهجة للناظرين، وعبرة للمعتبرين، منها ينزل كل خير، وإليها يصعد كل أمر حكيم. وقال: ﴿**السماء رفعها ووضع الميزان**﴾(٢) ووضع لها حراساً وعامرين يقذفون من اقترب منها من مردة الجن والشياطين. فقال:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ(٣) * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤) * وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٥).

---

(١) سورة النازعات: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة الرحمن: ٧.

(٣) فطور: شقوق.

(٤) حسير: حاسر، كال، تعب.

(٥) سورة المُلك: ٣ ـ ٥.

وترى في هذه الآيات الباهرات الآخذات باللب والعقل أن الخالق يؤكد أنها سبع سموات، طبقات بعضها فوق بعض، وأنك كلما أمعنت النظر فيها عاد بصرك دون أن يحقق شيئاً محسوساً محسوباً، وأنه يرجع كليلاً حسيراً، لا يملك المؤمن إلاّ أن يقول: (لا إله إلا الله الواحد الأحد الخالق المتعالي) سبحان الله عما يشركون. ولما رأى ضعفك وضآلتك أمام خلقه وجبروته، جبر بخاطرك فزينها لك لتعيد النظر هذه المرة لا لتستشف ما وراء الحجب، إنما لتمتع بصرك بمرأى هذه الكواكب المتلألئة، والقمر المنير والسحب المتراكمة وزخّات المطر البهيج! أما الثقل الآخر (الجن) فقد أعد في هذه السماء الدنيا لمن لا يؤمن منهم بالله وتجرأ على الصعود إلى الحمى الإلهي، فقد جعل تلك الزينة رجوماً له، دحراً لشياطينه وسحقاً لمن لا يؤمن بالله، ومن نجا منهم من هذه الرجوم المهلكة فلن ينجو يوم القيامة حيث أعد الله له عذاب النار وبئس المصير.

يقول جلّ من قائل:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[1].

فهم يقذفون من كل جانب، لئلا يسمعون ما يدور بين أهل السماوات فيلقون منه على الكهنة والسحرة والمشعوذين فينشرونه بين الناس فيُظَن أنهم يعلمون الغيب، فيتبعون الضلال والكفر، فهم مدحورون، أي مبعدون، ويلقون عذاباً واصباً، أي متعباً مضنياً.

---

(١) سورة الصافات: ٦ ـ ٩.

والعزيز العليم يكرر مثل هذه الآيات تأكيداً وترسيخاً في ذهن ﴿**لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[1].

فيقول العزيز الحكيم :

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[2].

الخلق العامر:

كل ما تقدم معك من آيات وبراهين ساطعة هي ـ في الدرجة الأولى ـ على خلق السماوات والأرض، وما فيهن وما عليهن من آيات ومعجزات جعلتها مهيأة لخلق آخر يعد له الرحمن إعداداً، فلما قضى ما شاء أن يقضي فيها عاد ليجعل فيها من يعمرها .

فخلق الملائكة الكرام من نور، إجلالاً لهم، وجعله خلقاً يليق بمن اختصه الخالق بقربه، وأعطاه ميزة العلو والرسالة والرقابة، وعصمهم من شهوتي الفرج والبطن، وهذا من آياته وفضائله على خلقه، فصار منهم الراكع إلى يوم القيامة، والساجد إلى يوم القيامة، والطائف بالعرش، والنازل الصاعد إلى الأرض والى السماء بأوامر الناهي الحاكم العادل، فهم في طاعته أبداً، ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[3].

وخلق الجان من مارج من نار. قال عز من قال : ﴿**وخلق الجان من مارج من نار**﴾[4].

---

(١) سورة ق : ٣٧ .

(٢) سورة فصلت : ١٢ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

(٤) سورة الرحمن : ١٥ .

وكرّمه وجعله مع الملائكة المكرمين، حتى وقع في قلبه الحسد وعصى أمر ربه، فطرده من ذلك الملكوت المطهر، وجعله من حطب جهنم يوم البعث، كما سيأتي في قصة خلق الانسان. ونظر الله سبحانه وتعالى إلى الأرض وما يتفجر فيها من خيرات، وكان قد سبق في علمه وهو (علاّم الغيوب) أن لهذه الأرض عامراً عابداً شاكراً لأنعم الله، ولكن من خلقهم لا يعلمون ذلك.

فقال:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۞ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(1).

---

(1) سورة ص: ٧١ ـ ٨٥.

وهكذا خلق الله آدم من تراب ليعمر هذه الأرض، فما أن رآه إبليس حتى حسده على هذه المكانة من الله، ورفض أن يسجد له، وظلت العداوة بينهما إلى يوم القيامة.

قصة خلق آدم مما يكون حاصل المقارنة بين الآيات المقبلات وما ثبت عن سيد الكائنات والروايات المختلفة، فإن الله أرسل جبريل عليه السلام، وأمره أن يقبض قبضة من أديم الأرض بما فيها من صخور وسهول ورمال وغيرها، فلما عاد بها إلى السماء خلق الله آدم من هذه الأنواع المختلفة، فكان منه: الكريم الخصب، والبخيل المقتر، والشجاع الصلب، والجبان الرخو، واللطيف الخلوق ومن لا يفيد إلاّ قليلاً، تماماً كأنواع التربة التي خلق منها.

وخلق من آدم زوجه بنص القرآن، ومازال إبليس به حتى أغواه، كما هو معروف لمعظم القراء، بل كلهم، فأهبطهم إلى الأرض ليستأنفوا العداوة، إبليس يُغرِي ويغوي، وآدم وحواء يتقيان ويتوبان، وهكذا استمرت الحياة على الأرض: غواية وإغراء، واستغفاراً وتوبة ورجاء.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ (١).

في هذه الآيات الكريمات يخبر الخالق ـ جل جلاله ـ ملائكته أنه سيجعل في الأرض من يعمرها ويقيم فيها شرعه ودينه، فأشفق المطهرون أن يفسد الإنسان في هذا الكوكب ولا يعبد الله. ويدلون على المولى بإخلاصهم، فيقولون: إن بني آدم سيفسدون في الأرض ولا يصلحون ويقتل بعضهم بعضاً مما يجعل وجودهم لا جدوى منه بل إنه ضار، ونحن يا ربنا لا نعصيك قائمين راكعين ساجدين مسبحين بحمدك، معترفين بقدسيتك.

فيجيبهم علام الغيوب أنه يعلم ما لا يعلمون، ثم يزيد في إقناعهم بأن يعلّم آدم علم السموات والأرض، وأسماء الملائكة، ثم يجري مناظرة بينه وبين الملائكة الكرام فإذا هذا الخلق العجيب الذي صنعه البارىء المصور وصوره فأحسن صوره فإذا هو يفوز بما علمه الله على الملائكة المقربين. سبحان الله عما يشركون.

وإذا الملائكة الكرام يعلنون الخضوع للواحد القهار معترفين أنهم لا يعلمون إلاّ ما علمهم الله.

ويأمر الخالق من في السماء أن يسجدوا لآدم تكريماً واعترافاً لله بالقدرة على غيب السماوات والأرض، فيسجدون إلاّ إبليس فقد أضمر العداوة لهذا المخلوق الجديد. فيقول جل جلاله: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى**﴾ (٢).

(١) سورة البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) سورة طه: ١١٦.

ويقول: ﴿فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(١).

كفر لكبريائه وعصيانه أمر ربه. إذ يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾(٢).

وهكذا تمرد إبليس، فطفق يكيد لآدم وزوجه حتى أخرجهما مما وهبهما الله من نعيم حيث أسكنهما الجنة يتفيآن من ظلالها، ويأكلان من ثمارها، ونهاهما ربهما عن الشجرة وحذرهما من عدوهما إبليس، ولكن آدم غوى وعصي، فأنزله الله وزوجه من الجنة، ومعهما عدوهما إبليس إلى الأرض.

يقول جلّ من قائل:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣).

وهكذا وجد آدم نفسه في هذه الأرض الموحشة، فقال: يا ربي ما لي

---

(١) سورة البقرة: ٣٤.

(٢) سورة الكهف: ٥٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٥ ـ ٣٨.

لا أسمع أصوات الملائكة؟ فيقول الرب: هي خطيئتك يا آدم. فيجأر آدم عليه السلام بالتوبة فيغفر الله له، إنه هو الغفور الرحيم.

ولكن نسل آدم ما لبث أن بثر وانتشر، وقوي وغني، وعقل وفكر.

فأرسل الله الرسل تترى، يذكرونه بنشأته الأولى ومآبه، فمنهم من آمن وأحسن، ومنهم من كفر وتجبر، وقال: أنا ربكم الأعلى، ومنهم من قال: ما أظن الساعة قائمة. ومنهم من قال: لئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً من هذا!.

فأخذ الخالق يذكر خلقه، فقال: ﴿**يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب**﴾(١).

يقول جل وعلا: إذا كنتم تشكون في إحيائكم مرة أخرى من هذه العظام النخرة، فكأنكم لا تعلمون مم خلقتم، فنعلمكم أنكم خلقتم من تراب، من جماد لا صلة له بالروح البتة، أما هذه العظام البالية فهي - على الأقل - كانت تحمل روحاً، تنطق وتخاصم وتتحرك وتشاء، أليس من يخلق من تراب بقادر على أن يعيد الروح إلى حيث كانت؟ بلى، وهو الخلاق العليم. ويكرر عليهم، ويؤكد لهم مراراً، فيقول:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ

---

(١) سورة الحج: ٥.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ۝ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾[1].

أشكٌّ بعد هذا أم أنه الكفر الصراح؟ إذا كان شكاً سنزيدكم إخباراً وتذكيراً لعلكم تعقلون.

يقول جلّ جلاله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴾[2].

تجادلون تمارون، وهو أعلم بخلقكم، إنه خلقكم من طين، أي من تراب ناعم مبتلّ، فجعل لكم أجلاً هو أعلم به. وقد جعل من هذا الطين سلالة كالصلصال فكوّن منه هذا الخلق البديع، الحسن:

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝

---

(١) سورة الروم: ٢٠ ـ ٢٥.

(٢) سورة الأنعام: ٢.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(١).

أترون ـ يقول الخالق ـ كيف خلقتكم من طين، ثم سَبَّبْتُ أسبابَ التناسل، فجعلتكم تتناسلون من ماء مهين، اي مهان لا قيمة له، لو نطف على الأرض ما نظر إليه أحد، ولو نطف على إناء أسرعوا ينظفونه، ثم سوى هذه النطفة ونفخ فيها الحياة، وجعل هذا الخلق سميعاً بصيراً، سبحان المتعالي.

وفي الآية التالية يجمع الله للإنسان تأريخ خلقه منذ أن يخرج كنطفة مذرة قذرة حتى يهلك، في آية واحدة لو تدبرها وتمعن في معانيها لكفته، يقول الممتن المنان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾(٢).

---

(١) سورة السجدة: ٧ ـ ٩.

(٢) سورة الحج: ٥.

وهذه الآية - في الواقع - غنية عن الشرح والتفسير، واضحة موضحة، فاضحة للجاحدين المكابرين، تريهم خلقهم بأعينهم طوراً طوراً، وكيف يعمل الغيث بالأرض وما ينتج لهم منه، وهي أشياء يشاهدونها صباح مساء، فهل بعد ذلك من بيان.

ويخبرهم بما ينظرون إليه كل يوم، فيقول:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

وهذا الذي لا يعلم شيئاً ولا يستطيع أن يدرأ عنه الذرة، بل لا يستطيع حتى أن يطلب الطعام والماء، لن يلبث حتى يكون شره مستطيراً، ظلوماً جهولاً، فيقول الله سبحانه:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

وفي عشرات الآيات من القرآن الكريم يؤكد خالق كل شيء، بأن هذا الانسان - بعد خلقه الأول - لا يخرج من صلب أبيه إلا نطفة مهينة مهانة. والتكرار القرآني له أسباب هي حكمة من حكم الإله الأعظم، فمنها: التأكيد، ومنها: التذكير، ومنها: إنه قد يقرأ الإنسان هذه السورة ولا يقرأ الأخرى، حيث كانت العرب تقرأ القرآن حفظاً. فاسمع السميع المسمع:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ

---

(١) سورة النحل: ٧٨.

(٢) سورة النحل: ٤.

نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[١].

فهو يقول لهذا الخلق الضعيف المتكبر: أزيدك ـ أيضاً ـ إنني بعد خلقك من هذا الوهن المقروف ثم جعلك عتلاً عنديداً، فإني أُميتُك، وهل تظن أنني أتركك ميتاً إلى الأبد؟

كَلاَّ، وألف كَلاَّ، فهذا أخوك أبو العتاهية، يقول:

ولـو أنـا إذا متنا تـركنـا
لكـان الموت غايـة كل حـيّ
ولكنـا إذا متنـا بعثنـا
ونُسأَل بعـده عن كـل شيّء

فأنا أميتك ثم أحييك، ثم أسألك عما استخلفتك فيه، من أين كسبته وفيم أنفقته؟ ويقول البشير النذير: يخلق الإنسان في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة (فهذه أربعة أشهر) ثم يرسل إليه الملك المكلف بالأرواح فينفخ فيه الروح، ويكتب: أجله، ورزقه، وشقي أم سعيد.

فيقول الأصحاب عليهم رضوان الله: يا رسول الله! ألا نتكل؟ فيقول: لا، اعملوا وكل ميسر لما خلق له.

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٦.

فإذا جحدوا أو شكوا فلا يحزنك هذا، فالله يرد عليهم بما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فاسمعه يقول:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

وهذا جواب مسكت حقاً، فالذي أنشأ شيئاً من عدم بلا بذرة سابقة، قادر أن يعيد الحياة إلى بقاياه مهما اندثرت، وهذا يعرفه كل ذي لب، وما يماري فيه إلّا الكفور. ثم يقص الخلاق العليم، بل يفند مزاعم الغافلين اللاهين، ليقول: أنا أجعلكم أزواجاً لتتعاونوا على البر والتقوى، وتتناسلوا فتملأوا الأرض وتعمروها، فقد خلقت منكم ومن كل ما يدب على الأرض، من كلٍّ زوجين اثنين، ومن أعمِّره (أطيل عمره) ومن أقصر عمره، ماكان هذا عبثاً إنما هو مكتوب مخطوط بعلم علام الغيوب، وهو عليه سهل ميسور.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٢).

---

(١) سورة يٓس: ٧٧ ـ ٧٩.

(٢) سورة فاطر: ١١.

ثم يدعو الرحمنُ الإنسان إلى التفكر فيما حوله، وأن يمعن الفكر في خلقه هو، فيقول:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (١).

ثم يخبره، قطعاً لتردده وخصماً للججه وتغابيه، فيقول سبحانه:

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۞ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ (٢).

فهو يخبره بأنه خلقه من ماء مدفوق من عضو أعده هو ـ الباري ـ ليكون وسيلة للتناسل، ثم يخبره من أين يخرج، فقد لا يعلم الإنسان أصل مخرج هذا الماء، ثم يؤكد له أنه قادر على إرجاعه وعدم خلقه. لذا تجد من ينجب ومن هو عقيم، لأن الله لم يرد له أن ينجب. وهذا الماء الدافق السائل الممتهن يتحول إلى علق:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٣).

فلما جعله علقاً ثم خلقاً فيه روح وقوة، جعل منه الزوجين، وجعَل بينهما مودة ورحمة، وأنجب منهما البنين والبنات. فيقول أصدق القائلين:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الطارق: ٥.

(٢) سورة الطارق: ٦ ـ ٨.

(٣) سورة العلق: ٢.

(٤) سورة القيامة: ٣٦ ـ ٤٠.

بلى، انه على ذلك لمن القادرين.

وقد امتن مبدع السموات والأرض على الإنسان فأعطاه من الحواس ما جعله خليفة في هذه الأرض، قال تعالى: ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**﴾(١).

وبعد هذه المواهب العجيبة المعجزة، كرمه الله بمعجز آخر يفرق بينه وبين بقية المخلوقات، فقد أعطاه لساناً ناطقاً، يعبر به عما يريد، وشتان بين ناطق وأبكم.

فقال تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾(٢).

وهكذا علمه البيان، ليقول ما يريد وما لا يريد ولا يكون كالسائمة التي تدعّ إلى حيث يراد بها، بل يقول: نعم، متى شاء، ولا، متى شاء، حراً عاقلاً ناطقاً سامعاً، فأي صفات غيرها يريد؟ ثم أليست هذه الصفات مؤهّلة إياه ليتفكر في خلق السماوات والأرض، فيقول: ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾(٣).

---

(١) سورة الملك: ٢٣.

(٢) سورة الرحمن: ١ ـ ٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٩١.

ويتفاوت هذا البشر

هذا الإنسان بنسائه ورجاله، صغيره وكبيره، يكاد يكون صورة واحدة من حيث التناسق الجسمي، إلاّ أن الله جعلهم مختلفين، مختلفين في ألوانهم، وفي ألسنتهم، وأمزجتهم.

غير أن الاختلاف الأهم هو اختلاف المدارك، فهو اختلاف مصيري، يتحكم في النجاح والفشل، والمكانة الاجتماعية، والسعادة والشقاء، وكل ما يمس الانسان في رقيّه وانحطاطه، وإجلاله وتحقيره. فقد جعل منه الذكي والغبي، والبخيل والسخي، والكريم واللئيم، وجعل منه الشجاع الذائد عن الديار والذمار، والجبان الخانع الذليل، وجعل منه الحليم والأحمق، والمبين والعتم، وبالتالي جعل في هذا البشر ما لا يحصى، وخالف طباع الأسرة الواحدة ليبين لنا عجزنا، فكم أمين جاء ابنه خائناً، وكم فحل صهم رأيت أخاه متخاذلاً، وحُوَّل قُلَّب، رأيت أباه كلاًّ؟!

قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

مراحل القوة والضعف

ثم نـزَّل الله هذا الانسان منازل يستطيع بها الحياة، فجعله ـ بعدما

---

(١) سورة النحل: ٧٦.

تقدم من وصف خلقه ـ وليداً ضعيفاً لا يحمي نفسه إن لم يُحمَى، ولا يطعمها ولا يسقيها إن لم يُطعم ويُسقَى، يدرجه طوراً بعد طور.

قال تعالى:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾(١).

فهو من طور الضعف البالغ إلى طور الشدة، ثم إلى القوة والفتوة، ثم إلى الكهولة والعقل والحلم، ثم الشيخوخة فالهرم، ﴿**لكي لا يعلم بعد علم شيئاً**﴾(٢).

يقول رب العزة:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾(٣).

هذا كلام يوجهه الباري إلى عباده مما يشاهدونه بأنفسهم، ويمر على كل شخص منهم، تقريباً لأذهانهم ليدركوا بهذا الواقع المعاش ما قد لا يصل إلى أفهامهم من الغيبيات، وكأنه ـ جل جلاله ـ يدربهم على التفكير والتدبر والإدراك، فهو القائل: ﴿**وفي أنفسكم أفلا** تبصرون﴾(٤).

---

(١) سورة نوح: ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة النحل: ٧٠.

(٣) سورة الروم: ٥٤.

(٤) سورة الذاريات: ٢١.

خلق كل شيء من ماء

والله سبحانه يؤكد أنه خلق كل شيء من ماء: الناس والدواب والأنعام والحشرات، وغيرها مما خلق. يقول:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

ثم سبَّب أسباب التناسل، فجعل من كل نوع ذكر وأنثى، حتى من النبات، والذباب والبعوض، وكل ما خلق بلا استثناء، ثم وهبها آية التلقيح فتلاقحت هذه الكائنات لتملأ الأرض من ماشٍ وزاحف، ونابت مثمر وغير مثمر، فتبارك الصانع المبدع.

يقول سبحانه:

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

ويقول أصدق القائلين:

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[3].

فلو لم تكن سنة التلاقح بين هذه المخلوقات والنباتات ما امتلأت

---

(١) سورة النور: ٤٥.

(٢) سورة الذاريات: ٤٩.

(٣) سورة القيامة: ٣٩.

الأرض حتى لترى بعض المدن وبعض الغابات، فلا ترى فيها موطىء قدم، ومع هذا يرزقهم جميعاً ويسبب لهم أسباب البقاء بحمايته ورعايته، مما لا يستطيع أن يضمنه حاكم أو زارع.

لقد كرَّمنا بني آدم

وحتى يزيد المعبود بحق في كرامة الإنسان ليتفكر ويشكر ويمجد الكريم المتفضل، جعل كل ما في الأرض يطيعه طوعاً أو كرهاً، فهو يقول:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1].

فانظر إلى الإبل، هذا الخلق الضخم، فلو لم يسخره لك الله أكنت تركبه وتحمل عليه أثقالك ومتاعك وأهلك ومن في كفالتك؟ لو لم يسخر الله هذا الكائن، أكنت تشرب منه لبناً سائغاً غذاء ودواء، أكنت تجزره وتأكل لحمه وهو الذي يزيد ضخامة وشموخاً؟ لِمَ كان هذا الحيوان ذو نفع قبل اختراع الآلة، ولِمَ كان يكاد يكون هو كل شيء في عالم الأسفار، والحج والتنقل، حتى سمي (سفينة الصحراء)؟

ولحرص الرب أن تكون وسائله تلائم كل بيئة، وكل قدرة للبشر، نوّع له وسائل نقله ومعيشته، فخلق وأبدع ونوّع ووسع، فقال:

---

(١) سورة يٰس: ٧١ ـ ٧٣.

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

أرأيت كيف تدرّج سبحانه في هذا التعدد والتمنن على الإنسان، وكأنّه أخذ عليه العهد والوعد بأني سوف أخلق ما لا تعلم ولم تر، فلا تقل حين تراه هذا حلال وهذا حرام إتباعاً لهواك، وقلة علمك.

فعند الله ما لا تنفد خزائنه، ينزل ما يشاء متى يشاء وكيف يشاء وعلى من يشاء.

وفي تأكيد المولى على التفكر في خلق هذا الكون وخاصة ما غَرُب منه، تراه يسأل في استنكار، ألا ترى أيها الانسان هذه الآيات الباهرات الدالة على عظمة خالقها.

ثم يقول:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾(٢).

بلى، ربنا ننظر ونعتبر ونؤمن، فاكتبنا مع الشاهدين.

---

(١) سورة النحل: ٥ ـ ٨.

(٢) سورة الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.

٢

آيات القدرة الإلٓهية

آية ملكه

ومن آيات ملكه صنعه ما يراه الإنسان مستحيلاً، ولا يستطيع الجزم به إلاّ أن يقذف الله الإيمان في قلبه، فيصدق الله ورسله.

فيقول: وقوله الحق:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(١).

وكنا روينا في فضائل مكة: وعن ابن عباس قال: الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه. حدّثنا أبو الوليد حدثنا محمد بن أبي عمر حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد الأعمى عن أبيه عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فلما دخلنا الطواف قام عند الحَجَر وقال:

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

والله إني لأعلم أنـك حَجَر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيـت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . ثم قبله ومضى في الطواف فقال له علي عليه السلام : بلى يا أمير المؤمنين هـو يضر وينفع قال : وبـم ذلك؟ قال : بكتـاب الله تعالى قال : وأيـن ذلك من كتـاب الله تعالى؟ قال : قـال الله تعالى : ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِـن بَنِي آدَمَ مِـن ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتهُم وأَشْهَـدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِـمْ ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بَلَى شَهِدْنا﴾[1] الآية . قال : فلما خلق الله عـز وجل آدم مسح ظهره فـأخرج ذريتـه من صلبـه فقررهـم أنه الـرب وهم العبيـد ثم كتـب ميثاقهم في رق وكان هذا الحَجَر له عينان ولسان فقال له : افتح فاك قال : فألقمه ذلك الرق وجعله في هذا الموضـع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، قال : فقال عمر: أَعوذُ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن[2].

ودليل هذا من الحياة المعاشة أن الانسان بالبديهة يعرف أكثر الحلال والحرام ، والفروض ، والخوف والرجاء ، والالتجاء إلى الله ودعاءه ، حتى لو كان أمياً في رأس جبل ، أو شيوعياً ينادي بإلهية المادة .

وهذا مما قذفه الله في روعه منـذ الأزل ، وفهَّمه معبوده وطرق معرفته ، فهو ليس بغافل ولا معذور.

ومـن آيات حكمتـه في تصرفه ، أن قسـم هـذه الذريـة في تناسلهـا تقسيماً يعلم هو أنه يناسب كل إنسـان و إن جحد الانسان وتذمر، وادعى الظلم أو سـوء الحظ ، ولكنه أمر الحاكـم العادل مقسـم الأرزاق ، فيجعل هذا ينجـب إناثاً ، وهذا ينجـب ذكوراً ، أو ذكوراً و إناثاً مختلطين ، أو يجعل بعضهم عقيماً لا ينجب ، كل هذا لحكمة هـو يعلمها ، وكم رأينا في الحياة

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) فضائل مكة للمؤلف : ٥٧ ، ٥٨ .

من تمنى وألح في طلب الذكور فلما جاءوا كانوا عليه وبالاً.

يقول سبحانه:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(١).

وبعد هذا القرار تجد من يلهث، ويقول: لم أرزق ولداً، لم أرزق بنتاً، ومن يركض وهو يقول: أريد ولو بنتاً عوراء! سبحان العليم القدير.

وهو القادر العالم المالك لهذا الكون، يستطيع أن يجعل العقيم يلد، بل وتلد من لم يمسسها رجل، ولا زالت عذراء، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

فهو يخبرنا أن زكريا شاب وهو عقيم، فجأر بالدعاء إلى ربه فقال:

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾(٢).

---

(١) سورة الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) سورة مريم: ٥ ـ ٩.

وهكذا تجد حتى الأنبياء عليهم صلوات الله، يشفقون على ميراثهم العلمي والنبوي، فيريدون من يتولاه بعدهم. وهكذا ترى أن الله يولد العاقر والعقيم، ويولد المسن، فهو إذا أراد شيئاً إنما يقول له: (كن فيكون).

وقادر على أن يولد العذراء التي لم يطأها بشر، فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(١).

وهكذا حملت الطاهرة بقدرة ربها، وقد حاولت الاستعفاء من هذا الحمل لأنها تعرف مكايد قومها، وتعرف ضيق أفق الناس، وحدة ألسنتهم، ولكن ربها أخبرها بأنه أمر قد قضي، فصدعت بأمر ربها، وأنه لأمر جلل، وأن له ما بعده، ولكنه أمر العزيز الحكيم. ولم يفت شياطين الإنس هذا الوضع الغريب فثارت الفتنة التي لا زال اليهود يورون ضرامها، ولكن الله جعل لمريم معجزة لو كانوا يفقهون، فإن هذا الذي في المهد يتكلم ويعظ ويخبر. ولو كان كما يدّعون ـ وكذبوا فيما يدّعون ـ ما

---

(١) سورة مريم: ١٦ ـ ٢١.

تكلم في المهد، ليقول لهم: إني عبد الله ورسوله، فهو ليس متكلماً فحسب، إنما هو رسول من الله، وما كان لِغَوِيٍّ أن تنجب نبياً ناصحاً فصيحاً.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۞ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۞ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۞ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١).

حقيقة إن مريم وابنها لآية عظمى لمن يريد أن يتذكر أو أراد شكوراً.

فرغم حملها ووضعها فقد برأها الله مما قالوا، وزكّاها زكاة، فقال القائل الصادق:

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة مريم: ٢٧ ـ ٣٥. (٢) سورة الأنبياء: ٩١.

فشهد الله، تعالت شهادته عن كل شهادة، أن مريم عليها السلام، كانت حَصَاناً محصنة، وأن الله اختارها، فأرسل إليها من نفخ فيها من روحه، وأخرج منها نبياً من أولي العزم. وأن الله ما كان متخذاً ولداً، ولا هو ابن لوالد قبله، ولا زوجة، ولا في ذلك كله من شيء، وأن الذين قالوا: ثلاثة، هم بربهم مشركون، وأي شركٍ أعظم من أن يجعل لله تعالى زوجاً وولداً، وله يسبح من في السماوات والأرض. ﴿**وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبحيهم**﴾(1). فقال تعالى: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم**﴾(2).

نعم، وصدق الله، إن كل شيء من إنسان وحيوان وشجر ومدر وحجر، بل والهواء والبرق والرعد والحوت في جوف البحر، كل ذلك ما نعلم وما لا نعلم، يسبح بحمد الله العزيز الوهاب، ولكننا لا نسمع ذلك ولا نفهمه من غير الإنسان، ولكن نقول آمنا وصدقنا، فاكتبنا اللهم مع المصدقين.

ولا بد للمُلْك من حفظ

فلما فرغ من إبداع وتنسيق هذا الكون العجيب، وأصبح يدبر الأمر من السماء، اتخذت الجن مراصد للسمع، يتسمّعون ما يذاع في السماء فيضيفون عليه من شعوذاتهم، ثم يوحونه إلى الكهنة والسحرة، الذين بدورهم يضيفون عليه من أكاذيبهم، فيوهمون الناس أنهم يعلمون الغيب، ويداوون به ويشفون ويمرِّضون، وما يعمل ذلك غير الله، وقد حرم إتيان هؤلاء الكذابين، وأباح لنا أن نتداوى بما لم يحرمه الله.

---

(1) سورة الاسراء: ٤٤.

(2) سورة النساء: ١٧١.

ثم اتخذ سبحانه لأولئك المترصدين المتسمعين الشهب يرجمهم بها، فلا يصلوا إلى ما كانوا يصلون إليه، فأخبرنا على لسانهم، قائلاً:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۞ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (١).

وهكذا حُميت السماء من شياطين الأرض، فجاء الوحي لسيد الأنبياء صافياً عذباً لا يعكره نفث السحرة، ولا سجع الكهنة.

في السماء إله وفي الأرض إله

وليؤكد القادر المقتدر أنه يحكم السماء والأرض بعلم، وقد جعل مع كل إنسان في هذه الأرض من يكتب حسناته وسيئاته، دقيقها وجليلها، أخبرنا أحسن المخبرين، فقال:

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۞ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢).

فهو يقول: كل إنسان جعلنا عمله ـ طائره ـ ملازماً له مكتوباً عليه،

---

(١) سورة الجن: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة الاسراء: ١٣ ـ ١٥.

فإذا جاء يوم القيامة أخرجنا له كتاباً فيه كل ما عمل من خير أو شر، ثم هو يومذاك تجده قارئاً، فيقال له: اقرأ عملك وحاسب نفسك بنفسك هل تجد من غلط، فإذا هو يعترف، فيقول: ﴿**ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصٰها**﴾[1].

فيقال له: من عمل صالحاً فلنفسه، ومن ضل وعمل السيئات فإنما عملها على نفسه، وليس عليه وزر غيره، ولا على غيره وزره. ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[2].

ولم نكتب عليك هذا إلاّ بعد أن أرسلنا رسولاً يتلو عليك آيات الله ويعلمك ما لله وللناس، وما حَلَّ وما حُرِّم.

وكان بعض الكافرين يعترض على كلمة (كتاب) فيقول: لو أحصينا ما يتكلم ويعمل الإنسان في يوم واحد أو شهر أو سنة، لوجدناه يملأ مئات الصفحات، فهل ترون أن هذا الإنسان يأتي يوم القيامة ومعه مئات الأحمال من الورق؟!.

وكأنهم استكثروا ذلك على الله وملكه، فكان أسلافنا يقولون: الله أوسع وأعلم، وصدق الله.

فإذا العلم الحديث يخترع هذا الحاسب الخازن، العجيب، وهو من صنع البشر، فنحن اليوم نقول لأولئك الكفرة: هذا صنع المخلوق، في إمكانك أن تخزن فيه معلومات دولة بكبرها، من إحصاء سكاني، وواردات وصادرات، وكل ما هو على هذه الأرض، أيصنع مخلوق ويعجز خالق؟ أم أنكم لا تعقلون.

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

ويؤكد جل وعلا، بما يخرس المتشككين، فيقول:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ[1] أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[2].

يزن لعباده بميزان العدل، وهو القادر على الإحصاء والعد، ولو كان هذا الموزون تافهاً كحبة زهيدة، وكفى بالله حاسباً محاسباً، وأية دقة تفوق أو تقرب من هذه الدقة، تعالى الله عما يفترون.

تحدي الكافرين والمغالطين

بعد كل هذا نجد من لا يؤمن بالبعث، ويستكثر على من خلقه إعادة عظامه سوية بها لحم ودم وروح، فيقول له الخالق:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[3].

وفي آية أخرى يقول خير المنزلين: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يُحيـي العظام وهي رميـم* قل يحييها الذي أنشـأها أول مرة وهـو بكل خلق عليم**﴾[4].

نعم، يحييها الذي خلقها من نطفة، أليس ذلك بقادر على أن يحيي

---

(١) خردل: نبات عشبي ذو حبوب صغيرة، ينبت برياً، يستعمل في التوابل.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٣) سورة القيامة: ٣ ـ ٤.

(٤) سورة يس: ٧٨، ٧٩.

الموتى؟ بلى إنه قادر مقتدر. وإذا لم تسلّموا بعد بهذه القدرة، وعاندتم ولججتم، تعالوا انظروا.

فقد قتل بعض بني إسرائيل رجلاً غيلة، فعمي عليهم القاتل، وكادت تثور الفتنة، فقال الله لنبيه موسى، مُرْهُم فليذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها فسوف يحيا من موته ويخبرهم من قتله.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

فذبحوا البقرة ﴿وما كادوا يفعلون﴾ فضربوه ببعض منها فقام القتيل وهو يشير إلى قاتله بيده.

وقالوا: يا عيسى نريد أن تنزل علينا مائدة من السماء، فتطمئن قلوبنا، ونتأكد من صدقك ونجعلها مطعماً لنا وعيداً، وكان بيت القصيد هو: هل عيسى صادق؟ وإذا كان صادقاً فهل يستطيع ربه أن ينزل مثل هذا؟ فإذا نزلها كنا شهوداً عليها لنؤمن ويؤمن كل من يراها.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: ٦٧.

(٢) سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٣.

ونزل الله المائدة ــ قيل هـي مائدة عليها سبعـة حيتان، وقيـل طعام ولحم ـ أنزلها الله إجـابة لدعوة عيسـى عليه السلام، وأمرهـم الله إلاّ يخونوا ولا يدَّخروا لغد، فخـانوا وادَّخروا فمسخهم الله قردة وخنازيـر. وقيل هي مائدة عليهـا ثمار من الجنة، وفي كل الحالات كـان طعاماً لا ينفد، يـأكل منه الآخر كما يأكل منه الأول، ولكن القوم بخلوا فادَّخروا منها لسوء ظنهم برازقهم. وقيـل مائدة تسير معهم حيث ساروا يقعـد عليها أربعة آلاف فما ينقصونها، فلم يشكروا الله حق شكره فعصوا فمسخهم قردة وخنازير.

ويأخذ العـزيز الجبار في التحذيـر والتخويف، بأنـه القادر على أن يعذبهم كيـف يشاء، وأن يخالـف بين قلوبهم ويجعلهـم بعد الأُلفـة أعداء يقتل بعضهم بعضاً ويظلم بعضهم بعضاً، ولكنهم لا يفقهون.

يقول جل من قائل:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[1].

ويمر الناس على الـوعيد والتحذير مرور الغافلين، ومـا هذه المحن التي يعيشها النـاس اليوم، وخاصة الأمـة الإسلامية والعربيـة إلاّ مصداقاً لوعيد الله القادر القـاهر، ويخوفهم، وما يزيدهـم إلا غفلة واستهانة، ولا يكتفون بهذا بل يذهب كل منهم ليجعل العيب في خصمه أو في حاكمه، أو في أمته وأهله، ولو أنهم أنصفوا وتواصوا بالحق، وأصلح كلٌّ نفسه أولاً،

(١) سورة الأنعام: ٦٥.

ثـم أهل بيتـه ، لتكوَّن مجتمـع يأكـل مـن تحت أرجله رزقـاً حلالاً طيبـاً ، ولأرسل الله عليهم بركات من السماء ، ومغفـرة ورضواناً ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً .

لقد صرَّف الله لنا في هذا القـرآن من الآيات ما فيه (مدكـر) فهل من مدكر .

فقالوا : لن يحيي الله من يموت ، فقال لهم ضارباً الأمثال :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

يقول لهم : هذا نبي الله عُزير مـر ببيت المقدس ، وقد دُمّرت واقفرت من أهلها ولم يعد فيها أثر للحياة ، فظـن أنها لن تعود كما كانت ، فأراد الله أن يريه ويجعله يقص مـا رأى فأماته مائة سنة ثم أحياه فسـأله كم يظن أنه ظلّ غائباً عن الـوعي ، فكان عُزير يظن أنه قد نـام ثم قام ، فقال : ﴿ **يوماً أو بعض يوم** ﴾ فأكد الله له أنـه قد أماته مائة عام وأنه بقـدرته التي سبقت الحفظ المعروف الآن بما علّم الله الانسان مـن وسائل العلم ، بعلمه المعجز

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٩ .

قد حفظ طعامه وشرابه طرياً لم يتغير لونه ولا طعمه، فلما رأى عُزيراً مندهشاً وكأنه لم يصدق أراه عظاماً متناثرة في الصحراء، فقال له هذه عظام حمارك، وانظر كيف نجمعها ثم نكسوها لحماً وجلداً ثم نسري فيها الروح، فقام الحمار - بعد مائة عام - ينهق، فأيقن عزير أنه أمام قدرة الله، فازداد إيماناً فذهب يقص على بني إسرائيل ما شاهد فآمنوا ثم عصوا ثم ازدادوا عصياناً.

النمرود يتحدى ثم يبهت

ووقف إبراهيم عليه السلام أمام النمرود ليقول له: ربي الذي يحيي ويميت، فقال النمرود: أنا أيضاً أحيي وأميت، ففطّن الله إبرهيم إلى أن هذه حيلة من عدو الله، أي أنه يقتل هذا ويعفو عن هذا، ففطن إبراهيم لقصد عدو الله، فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب، فبهت النمرود ولم يحر جواباً.

قال الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

نعم، ان الله لا يهدي الظالمين، وكم رأينا إلى يومنا هذا من يدعي

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

أشياء وأشياء، ولا يقول إن شاء الله، ولا بحول الله وقوته، فإذا الله يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فيهلكه كما أهلك النمرود وفرعون وأصحاب لوط، ﴿**إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب**﴾(١).

وإبراهيم يريد آية

لا يداخل قلب مؤمن أن إبراهيم عليه السلام كان في شك من قدرة الله، ولكن كان يريد آية تزيده إيماناً وتسليماً، ويجاهر بها الكافرين ويجبههم بها، فقال لربه الذي اتخذه خليلاً مكرماً وأنقذه من النار: يا ربي أريد أن أرى كيف تحيي الموتى، فيسأله الرحمن: أمن شك يا إبراهيم؟ فيقول: لا والله يا ربي، ولكن أريد أن أزداد اطمئناناً.

فيقول الله جلّ وعلا: خذ أربعة طيور وقطّعهن وقسّمهن على رؤوس الجبال، ثم نادهن، وقل: تعالين، وانظر ما يحدث:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

واعلم يا إبراهيم أن الله ذو العزة حكيم في خلقه، حكيم في إقناعهم لو أنهم يقتنعون، ولكن الآيات تصابحهم وتماسيهم، وفي كل ساعة من

---

(١) سورة غافر: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

النهار والليل، وكثير منهم عنها غافلون. وهكذا يرى إبراهيم أن تلك الطيور التي كانت قبل ساعة موتى مقطعة أوصالاً، عادت تطير في جو السماء، أليس الذي أحياها بقادر على أن يبعث من في القبور؟! بلى، ويحيي العظام النخرة، ويجعلهم ينظرون، ويجعلهم مهطعين منكسة رؤوسهم، إلاّ الذين آمنوا، فهم من فزع يومئذ آمنون.

أليس هو القائل:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1].

قد قلتم: إن الله لا يبعث من يموت، فها أنتم أتيتم وحدانا لا يلوي كل منكم إلاّ على نفسه، تركتم الضياع والقصور المشيدة، والدارات الجميلة، بل تركتم الأهل والأحبة والزوجات الحسان. فراداً أتيتم، ترجون رحمة من الله وغفراناً، تماماً كما خلقناكم أول الخلق، لا زوج معكم ولا ولد، ولا نصير، ولا محامون ولا محسوبون، وكنتم تقولون: سيشفع لنا هذا، ولنا شرك مع هذا، فإذا السبل تتقطع بكم فلا شريك أو شفيع إلاّ من أَذِن له الرحمن.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٤ـ٩٥.

قد أخرجكم من بطن الأرض الذي يشق الحبة والنواة فتصير نباتاً بإذنه، تأكلون منه وتأكل أنعامكم. بعثكم من الأرض الذي يخرج الحي من الميت فإذا هو يسعى، ويخرج الميت من الحي، ليعود يخرج منه حياً إذا شاء، فأنَّى تصرفون عن هذا الإبداع الإلهي، ألم تسمعوا قوله:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۞ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1].

النسخ والتبديل

ولما أمعن الكافرون والمعاندون في العصيان، أراهم الله من قوة ملكوته أنه قدير على مسخ البغاة، وتبديل عذابهم على المؤمنين نعيماً وسلاماً، فبدل بعضهم قردة، وأخرج إبراهيم عليه السلام من النار، لذا لا بد أن يصدقوا إذا قال الله ستبدل الأرض غير الأرض، وأنه يبعث من في القبور، ويطوي السماء طي الصحائف.

فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۞ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: ٦٥ ـ ٦٦.

فهؤلاء قـوم من يهود، حـرم الله عليهم الصيد يـوم السبت ليتفـرغوا لعبادة الله، ثم ابتلاهم فجعل الأسماك تأتي إليهم يوم السبت (شُرَّعاً) حتى يكادوا يـلامسوهـا، ولا تأتيهـم بقية الأيـام، فاحتـالوا على الله، فجعلـوا يشقون خلجـاناً من البحر يـوم السبت، فإذا دخل الحوت هـذه الخلجان سدوا عليه ليصطادوه يوم الأحد.

فسلط الله عليهم عذابه ومسخهم قردة وخنازير.

فقال عزّ من قائل: ﴿**فجعلناها نكالاً**﴾. أي جزاء لعصيانكم ليراها الحاضر ويسمع عنها من يلحق، ويتّعظ بها المتقون.

وقد أراهم من قبل ما فعل بالنمرود وكيده لإبراهيم الخليل عليه سلام الله، فما أن كاد إبراهيم لأصنـام أهل بابل حتى أمر النمـرود أن تؤجج نار ويقذف بإبـراهيم فيها، فأوحـى ربك إلى النار ألاّ تحرقي جسـم إبراهيم، وكوني عليه برداً وسلاماً. فقال تعالى:

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾(١).

فأنجـاه الله مما كـادوا، وخسر هنالـك المبطلون، وبـارك في ذريته، وجعل فيهم النبوة، وآخر أنبياء بني إبراهيم هو محمد بن عبد الله ﷺ.

فإذا علمتم هذا يا معشر من جاء بعد إبراهيم، وبعدما مسخنا أهل السبت، وأنتـم تعلمونـه حقاً بالتـوارث وما أنـزل الله على موسـى وعيسى

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠.

مـن بعده، إذا علمتـم هذا فـاعلموا أن يـوم القيامـة حق، وأن الله يبـدل الأرض غير الأرض، وأنكـم تبرزون إلينا حفـاة عـراة، أذلاّء، إلاّ من آمـن وعمل صالحاً فجزاؤه الحسنى.

يقول الله سبحانه من قائل:

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۞ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۞ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۞ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۞ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ ﴾(١).

وهكذا بيَّن خالق كل شيء، أنه ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها﴾(٢). وأن كل عامل يأخذ أجر عمله، إن خيراً فخيراً و إن شراً فشراً.

فالأرض تبـدل، فما هي تلك الأرض التي عـرفوها، وكانـوا يتخذون منها منازل وسبـلاً. والسماء طويت، فليس هـي تلك القبة الزرقـاء المزانة بالنجوم والغيوم والشمس والقمر، فالعالم اليوم غير ما نعرفه، نعم، ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾(٣).

---

(١) سورة ابراهيم: ٤٦ ـ ٥١.

(٢) سورة يونس: ١٠٨.

(٣) سورة يس: ٥٢.

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١).

كطي السجل، أي مثلما تطوون هذه الأوراق التي تدوِّنون فيها أعمالكم اليوم، فنعيد هذا العالم إلى ما قبل إبداعه وعمارته، والله قادر على ما يشاء.

وبعد أن نقضي بين الناس، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نلقي نظرة إنعام على المؤمنين، وحق لهم اليوم أن يكرموا وأن تطهر قلوبهم مما كان فيها في الحياة الدنيا من ضغائن وشحناء لا ينبغي أن يكون لها مكان في دار النعيم.

فيقول عزّ من قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٢).

هذا جزاء العاملين، جزاء غير مقطوع، خالدين فيه أبداً، وأي جزاء مثله، فلمثل هذا فليعمل العاملون، وتبارك الجازي الجازل، وتبارك الأكرم المتكرم، وسبحان الله جامع الأولين والآخرين.

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) سورة الحجر : ٤٥ ـ ٤٨ .

وما لا تستطيعون هضمه فكرياً

ولله من المغيبات والمعجزات ما لا تستطيعون تصديقه، رغم أنكم تمرون على كثير منه ممسين ومصبحين. فاسمع وانظر هذه المعجزة التي تلمسها بنفسك.

يقول الله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (١).

والمقصود بالذكر القرآن، وها أنتم ترون أنه يتلى خمسة عشر قرناً لم يستطع ملحد أو حاقد أو حاسد أن يغير حرفاً واحداً. وأذكر في أيام دراستنا أنه طبع مصحف، فغلطت المطبعة فكتبت **﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**(٢) فأسقطت (غير) وكانت غلطة شنيعة تنبه لها طالب على مقاعد الدراسة، فأُتلف ذلك المصحف كله من أجل حرف واحد. فأية حماية أكثر من هذه؟!

وهكذا يكون المسلمون بالمرصاد لأية غلطة مهما كانت، ولو كانت فتحة أو كسرة، وأكثروا فيه الدراسات، فدرسوا القراءات، وتفننوا في علوم القرآن، حتى أصبح كتاب الله معروفاً لدى المسلمين كمعرفتهم أبنائهم، لا يغالطهم فيه مغالط ولا يستطيع أن يرمي فيه رام. محفوظ بحفظ الله ثم رعاية المسلمين.

ويريكم هذه القبة الزرقاء المزدانة بمصابيح الله بديع السموات والأرض، منذ أن خلق الله السموات والأرض وهي تظلل الأرض، وينهمر

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

منها الغيث، فيحيي الله الأرض بعد موتها وتأكل من نبته الأنعام والأنام.

يقول جلّ جلاله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾(١).

ويقول جلّ وعلا:

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ ﴾(٢).

وآية من آياته العظمى، أن نرى الطير في جو السماء سابحاً باسطاً جناحيه، لا يختل توازنه، ولا يزوغ بصره، فمن أعطاه هذا الوضع العجيب؟! إنه الله ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾(٣).

يقول ممسك الطير في السماء:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾(٤).

ومن آياته أن خلق للإنسان وسائل المواصلات، وما فيها من منافع للبشر، من ركوب وتجارة، ليقطع المسافات الشاسعة، سعياً في الأرض لطلب الرزق.

---

(١) سورة فاطر: ٤١.
(٢) سورة الحج: ٦٥.
(٣) سورة طه: ٥٠.
(٤) سورة الملك: ١٨، ١٩.

قال المولى :

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾(١).

ولو لم يسخر الله لك هذا فمن يملك جماح الفرس، وخبط البعير ورمح الحمار؟

ثم كيف تجري الفلك لو لم يجر الله لها الريح رخاء؟ وكيف تسلم هذه البواخر العملاقة لو أهاج الله البحر بموج كالجبال؟ بل كيف تطير هذه الطائرات لو سلط الله عليها الأعاصير؟! وكل شيء من إنسان وحيوان وجماد لو لم يسخره الله استعصى وقل نفعه، أليس في هذا آية للمتبصرين؟!

ولم يكن الإنسان قبل نوح عليه السلام، يعرف هذه الجواري في البحر، حتى إذا اختار الله هلاك تلك الأمة (أمة نوح) بالغرق أرشد نوحاً إلى بناء جسم صالح للطفو فوق الماء، فكانت هذه السفن، ثم البواخر السائرة بالآلة، وغيرها.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الزخرف: ١٢ـ١٣.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٧.

فجعل الله لنوح عليه السلام توقيتاً دقيقاً وهو فوران التنور، وهو الميفا، الذي يخبز فيه. ثم أمره الله جلّ وعلا أن يحمل من كل شيء على وجه الأرض زوجين، ذكراً وأنثى، بذوراً لحياة جديدة يعود هذا الكوكب بعدها معموراً.

ويخبرنا الله أن نوحاً ومن معه ظلوا في سفينتهم تتقاذفهم الأمواج حتى حطت بهم على جبل (الجودي)[1] فنزل نوح ومن معه، فعاد كآدم ينشر ذريته في الأرض وعمرت.

ولأسباب يعلمها الله فإن بعض المعجزات يحفظها الله ماثلة للعيان، تصديقاً لما جاء على ألسنة الرسل الكرام، فقد عثر المنقبون قبل دهر على حطام سفينة نوح، على قمة جبل (الجودي) بشمال العراق على الحدود مع تركيا.

وصدق الله ورسوله، وقد صدّقنا بالغيب، ولكن الظالمين يجحدون.

والله يسير الرياح لمنافع الناس، ومنها تسيير هذه المواصلات:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۞ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[2].

فإذا كان الله ألهم الإنسان فاخترع ما يسيّر السفن في البحر ودون

---

(١) هو جبل بأقصى شمال العراق، قرب الحدود التركية.

(٢) سورة الشورى: ٣٢ ـ ٣٣.

حاجـة إلى الهواء، فهو بأمره ومشيئتـه، ولا يغير من أرادته شيئاً، وعـلامة ذلك أنه لـو أرسل الله الرياح عـاصفة لدمرت الـذي اخترع الانسان، ولو عاد واخترع ما يحمي عملـه من الريح، فإنه بـإذن الله اهتدى إليه، ولو لم يشـأ الله ما كان صغير ولا كبير. آمنا به وعليه توكلنا.

ويستمر الله في إقناع العباد

ويستمر الله سبحانه وتعالى في إقناع عباده لعلهم يرعوون ويؤمنون، فيقول لهم: إنه قادر على إحيائهم بعـد موتهم، وقادر على إنطاق أسماعهم شـاهدة بما سمعـت، وأبصـارهم بما رأت، وجلـودهـم بما لمست، وهـل يستتر من تشهد عليه جوارحه المصاحبة له من طفولته إلى أفولته.

يقول سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾[1].

هذا سجـل أمامك تجد فيـه كل ما قـدمت محصى مثبتـاً، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

فإذا حـاولت أن تنكـر ذلك وتجحده، شهـدت عليك جـوارحك: سمعك وبصرك وجلدك، وتشهد يدك بما بطشت، ورجلك حيث سرت، وفرجك بما فعلت، إلاّ أن تتوب من قريب فيتوب الله عليك.

يقول منطق كل شيء:

---

(١) سورة يّس: ١٢.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

أرأيت أيها الإنسان المغرور، إن عليك منك شهيداً، لا يعرف الزور، ولا المجاملة، ولا وساطة عنده. يشهد بالحق لصاحب الحق الملك الديان، الذي يقيم عليك الشهادة وليس هو في حاجة إليها إنما يقيمها عليك ليقطع حجتك وتحججك، وإنكارك، وإن كان لا يغني عنك هذا الانكار. قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
وتدأب فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم

والله يرينا من آياته

وعند الله ما هو أعظم. يقول تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا

---

(١) سورة فصلت: ٢٠ ـ ٢٢.

﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

فاطـر: مبدع السمـوات والأرض، يرسل الملائكـة إلى من يشـاء من عبيـده بـالحكمة البـالغـة والهدى، ومـا يشـاء الله، وانظر قـولـه: ﴿**أولي أجنحة**﴾ فقد جاء عـن النبي ﷺ أن من الملائكة من له سبـع مائة جناح، ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾ ذلك بأنهم يهبطون ملايين الأميال ثم يعودون إلى هناك في ساعات معدودة، حيث ثبت في الحديث الصحيح أن لله ملائكة يهبطون عند الفجر ويعودون بعـد صلاة العصر، وأن لهم بدلاء يهبطون بعد صلاة العصر ويعودون بعد صـلاة الفجر، يحصون أعمال الناس، ويخبرون الخبير العليم بذلك، وهو أعلم منهم بما يعلمون.

وآخرون يطوفون بعرش الرحمن لا يتركونه ساعة من ليل أو نهار. يقول تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

كـل ما يعمـل المولى عزّ وجـلّ، فآخـره ﴿**الحمد لله رب العـالمين**﴾ وعليك أن يكـون آخر عملك كـذلك، تـأسياً برب العـالمين، وتشكراً أو امتناناً له بما أكـرمك وأنعم عليك، فلولاه ما اهتديت، ولـولاه ما كنت تزن ذبابة، ولو سلبك البعوض شيئاً ما استنقذته منه، فالحمد لله ترضي الرحمن الكريم المعطاء.

---

(١) سورة فاطر: ١.

(٢) سورة الزمر: ٧٥.

وآية كالصاعقة

وهذه آية تفاجئهم وهم يلعبون، وهم يبيعون ويشترون، تفاجئهم وهم في شؤونهم لا يشعرون.

ذلك أن من علامات يوم القيامة، وقبيلها بقليل يرسل الرحمن على الناس دابة من الأرض، لا يهرب عنها هارب ولا يلحقها لاحق، تحمل عصاً تسم بها جباه الناس، فهذا مؤمن وهذا كافر، حتى أن الرجل ينظر إلى أصحابه وأهل بيته فيعرف أن هذا مؤمن وهذا كافر(1).

يقول تعالى جده، وتبارك اسمه:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾(2).

وهكذا يرسل العزيز الجبار الآيات والنذر الواضحة تترى، ويرسل المرسلين بالكتب المنزلة، ولا يزيد الظالمين ظلمهم إلاّ إعراضاً، ولا يزيدهم إلاّ نفوراً.

فتبارك الله الملك الحق بديع السماوات والأرض، لا إله إلاّ هو، عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم.

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتابي فضائل مكة.

(2) سورة النمل: 82.

٣

النظام الكوني

عندما فرغ سبحانه وتعالى من هذا الكون العجيب، وسبق في علمه أنه سيعمره بالثقلين الإنس والجن، وأنه سينشر فيه أقوات خلقه، ويكتب عليهم سعيهم في خير الدنيا والآخرة، كان هذا التدبير الحكيم كله يحتاج إلى نظام دقيق، ليعرف الإنسان مواعيد عمله العبادي والمعاشي، وأن يعرف العامل متى يعمل ومتى يستريح، ويعرف رب العمل متى يأمر بالعمل ومتى يمسك، ومتى يزرع الزارع ومتى يمسك، ومتى تسرح السائمة ومتى تبيت، إلى آخر احتياجات الناس والدواب إلى حساب دقيق يعيشون ويتعايشون به.

فجعل الله هذا الفلك الحسابي، وجعل له وحدة كبرى هي السنة، ووحدة صغرى هي اللحظة أو ما لا يحسب.

فجعل السنة اثني عشر شهراً، وجعل دليلها القمر والشمس، يهل الهلال فتبدأ ليلة جديدة، وتطلع الشمس فيبدأ يوم جديد، ثم قسم سبحانه وتعالى الشهر إلى ثلاثين يوماً، يبدأ بالمساء حين يهل الهلال، وينتهي كل يوم بغروب الشمس حين تغيب.

ولما أن هذا الشهر إذا كان متواصلاً كلَّ الإنسان عن العمل وغفل عن عبادة ربه، فقد قسمه المولى تقسيماً آخر جزلاً فجعل الأسابيع، كل ستة أيام عمل، ويوم للعبادة والاجتماع والتزاور، كي لا تطغى الناحية المادية على الناحية الروحية.

وهكذا قسم اليوم والليل إلى مراحل عبادة (خمس صلوات) ومراحل زمنية كالفجر والصبح، والإشراق والضحى، والقائلة والظهر، والعصر والعشي، والأصيل والغروب، وأجزاء أخرى دقيقة. وقسم اليوم إلى جزيئات أدق، كالساعة والدقيقة وما دونها.

من صنع هذا ومن يستطيع أن يصنعه؟! الله.

وهكذا جعل كل شيء بحسبان، وحساب دقيق، فجعل الشمس ضياء، وأوجب في ضيائها السعي، وجعل الليل مظلماً فجعله للراحة والنوم، وهو يقلبهما ويدخل أحدهما في الآخر حتى لا يكاد الحد بينهما يزيد عن قرن الشمس عند الشروق، وعن حرفها عند الغروب.

فقال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[1].

فالشمس ضياء لمن أراد أن يسعى، والقمر نور لمن تحرف بالليل وتعبد، ثم يقول سبحانه: ﴿**وقدره منازل**﴾. لماذا؟ لتعلموا عدد السنين والحساب، أي لتعلموا أن شهر كذا قد هلّ بهلال، وانقضى بمحاق، وهكذا شهر بعد شهر حتى تكون سنة فتتلوها سنة، وهذا حساب السنين الغابرة، التي يستدل بها على كثير من التزامات الناس بعضهم من بعض،

---

(١) سورة يونس: ٥ ـ ٦.

كالعقود والعهود، وتأريخ من سلف منهم.

ويؤكد الرب جلّ وعلا أن هذا ما وضع إلا بالحق، أي الصدق الذي لا كذب فيه، وما هذا التفصيل إلاّ للعالمين، للذين لهم عقول يدركون بها وأفهام يتذكرون بها، وكم من تمر عليه السنون سادراً لا يعلم شيئاً.

ثم أن تتابع الليل والنهار بهذا الوضع الذي لا تأخير فيه ولا تقديم، هو من آيات الله العظمى، وأن الذين يفهمونه ويتعظون به هم الذين يتقون، يتقون عذاب مبدع هذه الآيات، ويرجون رحمته لعلمهم أن من قدر على مثل هذا فهو على غيره أقدر.

﴿**لذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾(١).

ولو جعل الله الزمن كله ليلاً أو نهاراً، من كان يعرف كم انقضى من اليوم أو الشهر أو السنة؟.

يقول مصور الليل والنهار:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾(٢).

وكم كرر العزيز السميع في هذا القرآن من قوله: ﴿**ألا تسمعون**﴾، ﴿**ألا تبصرون**﴾، ﴿**ألا تتذكرون**﴾. كل ذلك لعلمه وهو العليم الحكيم، أن سمعنا حيال هذه العبر ثقيل، وبصرنا كليل، وتذكرنا قليل. ثم يذكرنا المولى بأنه ما عمل هذه الأهلة (جمع هلال) إلاّ لتكون لنا مواقيت نعرف بها

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١.
(٢) سورة القصص: ٧١.

مواعيدنا، وعباداتنا، كالصوم والحج، وديوننا وميزانياتنا .

يقول أحسن القائلين :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[1].

فكيف تكون الأهلة والأقمار؟ كيف تبدأ وكيف تذهب؟ .

مع أن عمل الهلال مرتبط ارتباطاً كاملاً مع الشمس، ولا يكاد يذكر القمر إلاّ والشمس قرينة له، فإن هذا الهلال من أعجب الآيات، لأن له كل يوم طوراً .

فهو يبدأ هلالاً كالشعرة، بحيث لا يراه إلاّ حديد النظر، ثم يتدرج ليلة بعد ليلة حتى يصير بدراً مكتملاً بين ١٣ و ١٦ ثم يبدأ في التناقص شيئاً فشيئاً، حتى يصير محاقاً كالسلك، وهذه علامة انقضاء شهر من السنة . وهكذا شهر بعد شهر تكر الشهور والسنون والقرون، والناس لاهون غافلون، كأن هذه الأيام والسنين لا تنقضي من أعمارهم، وكثير منهم لا يذكرون الله إلا قليلاً . فالليل والنهار يكران ولا يفتران، يسيرهما مسير كل شيء .

يقول مسيرهما :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٩ .   (٢) سورة يس: ٣٧ ـ ٤٠ .

يكون النهار مبصراً وأنت تنظر إلى ذكـاء وهي تتهادى نحو المغيب، وقليلاً قليلاً فإذا هي قد أفلت، فـإذا الضياء تحول ظلاماً، صنع الله الذي أحسن كل شيء صنعاً.

وترى البـدر، فبعد أيام فإذا هـو منحن كأنـه قوس (عرجون قـديم) والعرجون هو: العود الذي يحمل قنـو الرطب، يظل يهدل من الثقل حتى يعوج، فشبـه الخالق ذلك القمـر الذي عاد محاقاً، بـأنه عرجـون مهصور محني.

ثم يقرر خالـق كل شيء بأنه جعل نظاماً بديعـاً لضبط هذا الكون، هو جعل الشمـس تسير وراء القمر فلا تدركه، وأن لكـل منهما منزلة غير منزلة الأخـرى، أما ما يحدث من كسوف أو خسـوف، فليس من الإدراك ولكنه أمر قضـاه الله ليخوف به عباده، كما جـاء في الحديث الشريف (إن الشمس والقمـر آيتان من آيات الله، لا يخسفـان لموت أحد إنما يخوف الله بهما عباده) ثـم يأتي دور الليل والنهار فـان أحداً منهما لن يتقدم أو يتـأخر عـن النظـام المرسـوم له. إنما مهمتهما تسيير الحيـاة على هـذه الكـائنـات الموجودة في هذا الكون البديع.

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[1].

دور الشمس والقمر في الحياة الآخرة

ولم ينته دور الشمـس والقمر والليل والنهار بـانتهاء الدنيـا، إنما من أعظم آيـات العزيـز الجبار أن يتحولا معنـا إلى يوم القيـامة، حين يـوقف الرحمن الشمـس بمقدار ألف سنـة مما نعده في الحيـاة الدنيا ليتـم حساب

---

(١) سورة الرحمن: ٥.

الناس أولهم وآخرهم، وقيل بل ألف سنة مقدرة بعددنا لو كان الصانع نحن، وأن المقصود هي أوامر الله تنزل من السماء إلى الأرض وبينهما مسيرة خمس مائة عام ثم تعود في مثل ذلك، ولكن الله يجعلها في لمحة.

ولم يثبت ثبوتاً قاطعاً بأن هذا يوم القيامة، ولكن الحديث الصحيح أن يوم القيامة عن خمسين ألف سنة، وهو قول من سبعة أقوال أوردها ابن كثير في تفسيره[1].

يقول الله:

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[2].

ويقول جلّ من قال:

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[3].

إنما أوردنا الآيتين ليظهر أنه لا تعارض بينهما، ولزيادة الفائدة في ذكر ما يغير الله من الأشياء ما يريد تغييره، سبحانه وتعالى.

وإن يوم القيامة بحد ذاته لهو آية كبرى من آيات الله الباهرات، حيث يجمع الناس أولهم وآخرهم من ملايين السنين إلى يوم يبعثون، فيضع

---

(١) تفسير ابن كثير للآية المشار إليها.

(٢) سورة آلم السجدة: ٥.

(٣) سورة المعارج: ٤.

الرحمن الموازين بالقصد ويفصل بين كل متخاصمين، وتوفى كل نفس من هذا الجمع الذي هو كالفراش المنتشر، توفى ما عملت لا تظلم مثقال ذرة، وكفى بالله حاسباً، وكفى به ملكاً عادلاً.

والبروج من الحساب

وكان حساب العرب في الجاهلية بالبروج، دون إغفالهم الشهور القمرية، وهي اثنا عشر برجاً يسمى كل منها شهراً، تبدأ بالحمل وتنتهي بالحوت[1].

ولكل برج ٣٠ يوماً، ولذا فلا تطابق السنة الشمسية (البروج) السنة القمرية، لأن السنة الشمسية هي ٣٦٠ يوماً، والقمرية ٣٥٤ يوماً.

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[2].

ويضع الخالق البروج إلى جانب الشمس والقمر، ممتناً بذلك على الإنسان، فيقول:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[3].

---

(١) راجع ـ إن شئت ـ كتابي (معجم الكلمات الأعجمية والغريبة في التأريخ الاسلامي): ١٠٨.

(٢) سورة الحجر: ١٦ ـ ١٧.

(٣) سورة الفرقان: ٦١ ـ ٦٢.

والعرب تسمي هذه البروج نجوماً، فيقولون: أصاب النجم (النوء) وأخطأ النجم، وهي نفس أنواء العرب المعروفة في حساب الفلك، مقسمة على فصول السنة الأربعة بالترتيب.

وليس للنجم شيء من الخير أو الشر ليقال أصاب أو أخطأ، وما ذاك إلاّ من عند الله. ولكن الله يسبب الأسباب، فينزل المطر في فصول معينة من السنة، حيث يكون الفصل ملائماً لنمو النبات، وقد ينزل المطر في بعض الديار في الشتاء وبعضها في الصيف، فليس لنجم مطر ولا لفصل، إنما يدبر الله الأمر فيعطي كلاًّ متى شاء، ومتى صلح الزرع وطاب الهواء. وكان العرب يتخذون لأسفارهم الليلية علامات من النجوم لذا قال تعالى: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾(١).

ويقول تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

الليل والنهار

إن الليل والنهار لآيتان باهرتان، تعاقب إحداهما الأخرى، تعطي هذه الضوء والانتشار، والسعي في مناكب الأرض، وتعطي الأخرى العتمة وتراخي الأجسام إيذاناً بموعد السكن والخلود إلى الراحة، والتذكر والذكر

---

(١) سورة النحل: ١٦.

(٢) سورة الأنعام: ٩٧.

والعبادة، فقد أمضت النفس يوماً حافلاً بذكر الدنيا غافلة عن ذكر الله واليوم الآخر.

﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾(١).

وقد ذهب هذا النهار بطوله، فإن لم تكسب منه خيراً فما أحراك أن ترجع إلى ربك تبثه نصبك وتطلب منه خير الدنيا والآخرة.

﴿واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا﴾(٢).

فقد سبحت في ذلك النهار الطويل، فتفرغ الآن لعبادة ربك، (تبتّل) وادعه تضرعاً وخيفة، فهو النافع وهو الضار، وهو القادر على أن يهب لك ما يشاء.

وهكذا نجد الجديدين هما قوام هذا الكون ومتى انتهيا انتهى كل شيء.

يقول تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾(٣).

وفي فلق الصبح وإتيان الضياء من الشرق مقدمة لطلوع الشمس، ثم اتباعه بليل يسكن الإنسان فيه، تقدير من عزيز عليم، آيات ظاهرات لكل من أراد أن يتذكر، ولكل ذي لب سميع.

---

(١) سورة المزمل: ٧.

(٢) سورة المزمل: ٨.

(٣) سورة الأنعام: ٩٦.

يقول جلّ جلاله :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١).

أرأيت؟ إن هذه الآيات تذكرة للخاشعين، ينظرون فيما بين أيديهم وما خلفهم من خلق بديع، فيهديهم تفكيرهم أن هذا لم يخلق عبثاً، إنما هو كون مدبر مخطط من لدن عزيز حكيم. فإذا رأوا ذلك ذكروا الله وأثنوا عليه حق الثناء، وعبدوه حق العبادة، ثم طلبوا منه الغفران والبعد عن النار، ذلك أن القادر على خلق هذه العجائب وهذه الآيات قادر على إدخال العصاة النار، ووقاية عباده المؤمنين منها و إدخالهم الجنة.

يقول أصدق القائلين :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾(٢).

هكذا اللطيف الخبير، يأتي لنا في الصباح بالنهار لنسعى للرزق،

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٢) سورة الاسراء : ١٢ .

ولنؤرخ لأنفسنا يوماً جديداً، لنعلم ما مر من زمن، فهذه سنة وبعدها سنون، وهذا حساب لنعاود به التذكار فنعلم منه ما مر على الأمم السابقة من خير أو شر، فلولا هذا النهار المتكرر ما عرفنا أمس من غد.

فإذا نلنا مبتغانا من هذا النهار، فإذا برب الآيات يعيد إلينا آية تركناها في الصباح، هذه هي آية الليل، لنعود إلى الأهل والأولاد، وإلى الفراش والراحة، فقد قُلِب النهار ليلاً.

يقول سبحانه:

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(١).

وفي التقليب لم نُهْمَل لنأكل ونشرب ونشقى في جمع الدينار والدرهم، بل قسم هذا الزمن تقسيم رأفة وحنان لعباده، ففرض عليهم كل يوم خمس صلوات، هي في مجموعها إذا أُدِّيت على أكمل وجه لا يزيد وقتها على عشر ما أعطاك من عمر، وكأن ذلك رمز إلى أن وقت العبادة هو زكاة العمر، فقد جعل الله لكل شيء زكاة.

وقد أحصى بعض الفضلاء أوقات الصلوات الخمس في جماعة على وجه معتدل، فلم يزد وقتها جميعاً على (١٦٠) دقيقة في كل ٢٤ ساعة، أي نسبة ١١٪ أما الذين يصلونها فرادى فلا تزيد على ٥٪. ولهذه الفرضية التي إذا أهملها الإنسان لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، يقول جل جلاله:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة النور: ٤٤. (٢) سورة فصلت: ٣٧.

اسجدوا لله واستغفروه يغفر لكم، فإذا أديتم الفرض لا تنسوا أنفسكم من النوافل، فهي رصيد يثقل ميزان حسناتكم يوم القيامة ﴿**فأما من ثقلت موازينه* فهو في عيشة راضية**﴾(١). وفي الحديث القدسي (ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ولئن سألني لأجيبنَّه، ولئن استغفرني لأغفر له).

وليست النوافل - كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس - هي الصلاة فحسب، ولكن الدعاء والاستغفار وقراءة القرآن، والتسبيح والتحميد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ما ينفع الناس، كل هذه نوافل تقرب من رب العباد.

إذا أديت صلاة العشاء، وأصبت مما كتب الله لك رزقاً حلالاً طيباً، فاسكن وأرح بدنك فإن له عليك حقاً. يقول تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾(٢).

فإذا مشيت على هذا المنهج فإنك من القوم الذين يسمعون، فإذا قدرك الله فقم من آخر الليل ساعة تدخرها عند الله، والله عنده أجر عظيم.

ففي الحديث الصحيح: عن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ قال: «يَنْزِل رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلّ لَيْلَة إلى السماء الدُّنْيا حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَيلِ

---

(١) سورة القارعة: ٦ - ٧.

(٢) سورة يونس: ٦٧.

الآخرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُوني فَأستَجيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأغْفِرَ لَهُ» (رواه الأربعة) .

ولا تدع مع الله غيره

إن الذين يشدون الرحال إلى القبور (قبور الصالحين) في هذا العالم يبتغون عندهم الرزق والذرية والشفاء ما هم إلاّ في ضلال مبين . أنت تشد الرحال لتدعو عند قبر لو كان لصاحبه قدرة ما كان راقداً في قبر، لو كان يستطيع أن يدرأ عنك شراً ويجلب لك نفعاً لدرأ عن نفسه الموت ، أنت تذهب إليه على نصب وغرم ومشاق ، وتدع من يقول : ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾(١) وأين تدعوه؟ تدعوه وأنت مستلقياً على فراشك فيسمعك ، وتدعوه وأنت تسير إلى حقلك أو تجارتك أو مسافراً أو مقيماً فيسمعك ، ويجيب . أنت تدعو ميتاً ورغم اعتقادك فإنك غير موقن بالإجابة ، وتدع حياً سميعاً مجيباً ، يقول لك : أدعني أجبك . فإذا لم تدعني فأنا غاضب منك ، وسأدخلك جهنم . واسمع قول من قال :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين تسأله يغضب

إن ذاك الميت يا أخي المسلم لو كان حياً فرأى هذا الحشد حول بيته لغضب ، ولاشتكى إلى السلطة الآدمية! فكيف وهو ميت لا حول له ولا طول .

اسمع ربك يقول :

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ

---

(١) سورة غافر: ٦٠ .

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[1] ﴾[2].

يولج الليل: يدخله في النهار فلا ترى بينهما فاصلاً، غير نور يبزغ، وظلام يهجم، والشمس والقمر مسخرات لذلكم، لا إبطاء ولا إسراع، ولا تلكؤ ولا عصيان، كل من في السموات والأرض لا يعصون الله ما أمرهم، إلا الثقلان على ضعفهم و إنذارهم يوفكون.

و يؤكد رب القدرة أن ما تدعون من دونه لا يملكون مثل قشر النواة (قطمير) على هوان قشرة النواة.

ومع هذا فما أسررتم وما أعلنتم فإن الله به خبير بصير عالم، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض.

يقول تعالى:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3].

فما تخفى على الله خافية، ما أكننا وما أعلنا.

﴿ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[4].

---

(١) القطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة.

(٢) سورة فاطر: ١٣.

(٣) سورة الحديد: ٦.

(٤) سورة ق: ١٦.

٤

آيات الله الدالة على العبرة والاعتبار

ناموس الحياة والموت

عالـج القرآن الكريـم كثيراً قضية الحياة والموت، والبعـث والنشور، ذلك أنـه ما أرسل رسـولاً إلى قوم إلاّ كذبـوا بالبعث، جحـوداً واستهزاء، فسماهم الله «الكافرين».

وأكد لهم وشـدد، وتوعـد، وضرب لهم الأمثال كما تقـدم من إماتـة عُزير عليه السلام، وإحيائه، وإحياء صاحب البقرة، ولكن الكافرين في شقاق بعيد.

فضرب لهم ـ هنا ـ مثلاً مما يبصرون بأعينهم، ويأكلون هم وأنعامهم منه، فقال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وكأن الله سبحانـه يقول لبني آدم: أنتم ترون هـذه الأرض التي منها زادكم ومـاؤكم، وفيها تـرعى أنعامكـم، هذه الأرض إذا أمحلت مـاتت، ويبس نباتها وغار ماؤها، فهلك الضرع وخمد الزرع.

---

(١) سورة فصلت: ٣٩.

وإذا سألت أعرابياً عن أرض ممحلة، قال لك: ميتة.

فإذا نزل (المطر) عليها من السماء تشققت ورأيت النبات يبزغ من بين الشقوق، ثم يخضر فيصير أكلاً، يتغذى منه الإنسان، ويسمن عليه الحيوان، ويدر الضرع وينضر الزرع، (أليس الذي أحياها بقادر على أن يحيي الموتى) بلى. وما أشبه خروج النبات بعد المطر بخروج الأجسام من تحت الثرى، حيث جاء الحديث أن الله يمطر على الأرض مطر الحياة، فيخرج الناس كأنهم نبات. سبحان المحيي المميت.

فلما أراهم الله كيف تحيا الأرض الميتة وهم ينظرون، قال لهم جلّ جلاله:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(1).

أي أن الذي أحيا الأرض الميتة لا يعجز أن يخرج هذا من هذا. وقال المفسرون: يظهر الله في هذه الآية قدرته على خلق الأضداد بعضها من بعض، فهو يخرج الزرع الحي من الحب الميت والحب الميت من الزرع الحي، والبيضة من الدجاجة وعكسها، ويخرج الإنسان والحيوان من نطفة لا حياة فيها، وقد أخرجها من روح حية، وإذا آمن الإنسان وأبوه كافر، فقد حيي، وظل أبوه ميتاً، أي موت القلب، وغفلته عن ذكر الله.

فقالوا: أمنا، إن الله على كل شيء قدير.

ويضرب الله تبارك اسمه مثلاً قريباً مما تقدم، حيث يؤكد لهم أن مما يلمسونه بأيديهم هذا الاستدرار الذي يستجمونه من البهائم، تدره مما

---

(1) سورة الروم: 19.

تأكلـه من نبـات الأرض فتفرزه من بين الـدم الذي لا يستسـاغ و(الفرث) الذي هو آخر بـراز الماشية، من بين هذين القذرين يخرج لكـم لبناً سائغاً مركـز الغذاء منـه الزبـد والروب والأقـط وغيره، ثم سخـرنا هـذه البهائم الغـلاظ، تذبحـونها وتأكلـون لحومها طعـامـاً حلالاً طيبـاً، ثم تحملـون متاعكم عليها وتركبون .

يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[1] .

حتـى الحشرات سخرهـا لخير الإنسان، فـأخرج مـن بطون النحـل عَسَلاً فيه شفاء للناس، ومن لـدغات بعض الحشرات شفاء، وفي كل ما ينزل الله على عباده دلالة قاطعة بأنه (لطيف خبير) .

يقول أصدق القائلين :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

---

(١) سورة المؤمنون : ٢١ ـ ٢٢ .

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وهكذا ترى ما أفضل الله على عباده من النعم، **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**(٢).

حكمة التدبير

الله الخبير البصير يعلم كيف يضع كل شيء في موضعه، فجعل هذا غنياً وهذا فقيراً، وهذا مالكاً وهذا مملوكاً، فإن ثبتوا على ما هم عليه من خير أو شر ثبتهم، وإن غيروا غيّر بهم.

يقول سبحانه:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

يؤتي ملكه من يشاء على علم منه بصلاح هذا المالك للملك، فإذا فقد هذه الصلاحية، وغالباً ما يكون ذلك بالظلم والجور وعدم تحكيم أوامر الله في الرعية، إذا فقد تلك الصلاحية أتاه أمر الله على حين غرة، فأذاقه طعم الذل بعد العز، وألبسه ثياب التشريد بعد الاستقرار، وبدل نعمته نقمة، ولم يلبث أن يصبح نسياً منسياً، ثقيلاً على من يضيّفه، عالة

---

(١) سورة النحل: ٦٦ ـ ٦٩.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٣) سورة آل عمران: ٢٦.

على من يعوله، فسبحان مقلب الأحوال، جاعل عباد الله المؤمنين في منجى من التبديل والتغيير، وما أكثر العبر وما أقل الاعتبار.

يقول تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1].

فيا أيها الذي أُعطي الملك، ملكاً أو رئيساً أو وزيراً وحتى إن كان أباً أو زوجاً، اعلم أن بقاء ذلك ـ أسبابه ـ بيدك، أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتعدل بين من ولاك الله عليهم، وتحكِّم فيهم شرع الله المنزل من السماء، فإن لم تحكم به فما أنت من المؤمنين.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[3].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[4].

وإنما حكَّم الله الناس بعضهم في بعض لتعمر الدنيا، فلا يبغي قوي على ضعيف، ولا يتساوى الناس في الغنى والجاه، فلا يوجد من يخدم أو يبيع أو يشتري، ولو تساووا علواً أو انحطاطاً لبطلت الأعمال، ولكن الله يحكم ما يريد. فاسمع قوله وتفكر:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [5].

---

(1) سورة البقرة: ٢٤٧.
(2) سورة المائدة: ٤٤.
(3) سورة المائدة: ٤٥.
(4) سورة المائدة: ٤٧.
(5) سورة الزخرف: ٣٢.

هكذا خلق النـاسَ رب الناس ؛ ملوكاً وسُوَقـة ، وخدماً ومخدومين ، فإذا غيَّر السـوقة ما بـأنفسهم إلى أحسـن ورقّوا أفكارهـم صعدوا إلى أعلى الدرجات الدنيوية ، و إن غيَّروا إلى أسوأ ، هبطوا إلى ما دون ذلك ، وكذلك كل الطبقات .

إلاّ أن هـذا كله في الـدنيا ، أمـا الآخرة فلهـا أمر آخـر ، فكم خـادم سيسبق مخدوماً ، وكم ضعيف لا حيلة له في الدنيا سيسبق العناديد الطغاة بما قدم من طيب الأعمال .

﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾(١) .

فمن غيَّر إلى خير غيَّر الله ما به إلى الخير ، ومن غيَّر إلى شر غيَّر الله ما به إلى الشر . وها هو يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾(٢) .

هكذا قطع الله وعداً صادقاً على نفسه ، أنه لا يزيل نعمة أنعمها على عبد حتى يحدث هـذا العبد غير ما أمر به ، وحينئذ يحق عليـه القول فتزول هذه النعمـة ، كما أن أهل البـؤس لا بد أن يسعـوا إلى إصلاح أنفسهـم إن كانوا كسالى أو اتكاليين ، ليسبب الله لهم مسببات الرزق الرخي ، ﴿**فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾(٣) .

وأن يتوبوا إلى الله ويستغفـروه ويدعوه ، إذا كان مـا بهم من المعاصي والإعراض عن طاعة الله .

---

(١) سورة المطففين : ٢٦ .

(٢) سورة الرعد : ١١ .

(٣) سورة الملك : ١٥ .

ويؤكد هنا الرب الجليل أنه إذا أراد بقوم شرّاً فإن أحداً لا يستطيع رده، فلا عاصم لهم، ولا مولى من دونه. ولكن أيحدث هذا الشر من رغبة لديه جلّ وعلا في عذاب المخلصين المؤمنين؟ كلاّ. فإنه يقول وقوله الحق:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۞ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1].

والتأمير هنا: بالجاه والثروة، فإذا حصل الإنسان على مثل هذا بحث عن الملذات، والملذات قلَّ ما تكون من غير المحرمات، وغالباً ما تقود إلى الظلم والاعتداء على الأموال والأنفس والأعراض، فحينئذ يتدخل الحاكم العادل، ليقلب أحوال هذه البلدة أو الإقليم، فيجعل النعيم جحيماً، والهدوء زعزعة، فيمحقها، ويقطع دابر أهلها.

فهل من معتبر أو مصدق؟ وما هذه الويلات التي نراها ونسمع عنها حولنا؟ أليست هي التي وعد بها العزيز الجبار، فكم بلد زلزل ودمر وشرد أهله، وكان بالأمس يرفل في بحبوحة من العيش الرغيد، به الدارات النضرة، والوجوه السفرة، وكم كان بها من الأغنياء والوجهاء الذين يأمرون فيطاعون، ويطلبون فيقدم إليهم ما يشتهون، وكم رأينا من قرية باتت آمنة مطمئنة، ربما بات كثير من أهلها على الفجور وقبيح الأمور، فداهمها جيش لم ينم ولم يسمع أنغام الموسيقى، بات يعد السوء المنزل، يخطط ويرقب ساعة الصفر، وفجأة تتغير هذه النعم، ويفترق الزوج وزوجه، والابن وأمه، وكأن القيامة قامت، فلكل منهم يومئذٍ شأن يغنيه، فحق عليه قول العزيز الحميد:

---

(١) سورة الاسراء: ١٥ـ١٦.

﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

أصبحت مساكنهم خالية، بعد أن كانت عامرة، لماذا؟ لأنهم أجرموا، والإجرام من الجرم وهو تجاوز حدود الله، والعبث بحرماته، وعصيانه بالفجور والفسوق، وعدم اتباع أوامره واجتناب نواهيه، وعدم تأدية ما فرض الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وذكر، غرتهم الحياة الدنيا فهم المغرورون، وأملى الله لهم، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر. إن ما في العالم من لاجئين، ومشردين، ومنكوبين، هم في الغالب ممن غضب الله عليهم فعاقبهم بما يعاقب العصاة الغافلين. والله أمرنا أن نسير في الأرض فننظر إلى هذه الأحداث، وأن نتعظ بما جرى لهؤلاء من تغيير نعمة، وحلول نقمة. فقال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢).

فلو رأينا ما حل بهؤلاء بقلوبنا لا بعيوننا، لاجتنبنا إتيان ما أحكم عليهم هذا الانتقام الإلهي. وإن فيما جرى لهم ويجري ليل نهار بين سمعنا وبصرنا لعبرة لمن اعتبر، وأن الله لا يظلم الناس، ولكن يملي لهم، ويمهلهم، فإذا أبوا واعتدوا على حماه وكرروا الاعتداء، فخوفهم فلم يخافوا، وزجرهم فلم يزدجروا، وأراهم نقمته في غيرهم فلم يعتبروا،

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٥.   (٢) سورة الروم: ٩.

جاءهم أمره بياتاً وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون، فذاقوا وبال أمرهم، فإذا هم يجأرون.

فالعاقل الرشيد المؤمن المنيب من نظر فتبصّر، وفكّر فاعتبر، ثم ارعوى من قريب، وأخلص العمل، وتوسط في أموره. يقول الباري:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[1].

ويقول جلّ من قائل:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾[2].

فلم يحرّم الله علينا ما منحنا من أموال وصحة أن نتمتع بها في ما أباح، ولكن نهانا عن الإسراف لئلا يؤدي بنا إلى الفقر أو يؤدي بنا إلى البطر وطلب المزيد من الملذات، وهنا تقع الكارثة، لأنّ طلب المزيد من الملذات يؤدي إلى المحرمات، ونهانا عن التقتير لما فيه من لؤم وبؤس، وفي الحديث: (إن الله يحب أن يرى أثر خيره على عبده).

وأنت ترى هنا كأني أخوفك من غضب الله في الدنيا، فهذا لأن الدنيا ألصق وأقرب في نظر كثير من الناس، فهؤلاء هم الذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة**﴾[3]. إلا أن وراء الدنيا ما وراؤها، ووراؤها الروع الأكبر، ثم فريق في الجنة وفريق في السعير.

---

(١) سورة الفرقان: ٦٧.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢٠١.

اسمع الواعظ الزاجر يقول:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١).

خافوا الله أيها الناس وآمنوا بما أنزل على نبيه قبل أن تقوم الساعة، وما أدراك ما قيامها؟ إنها زلزلة عظيمة، إذا سمعها الناس زلزلوا وأُرهبوا وسكرت أبصارهم وما بهم من سكر، ولكنه الهول والروع الأكبر، فالمرضعة لا تحرص على شيء حرصها على رضيعها، ولكنها في هذا اليوم تنساه وتنسى نفسها. أتظن أيها الإنسان أن هذا من شيءٍ يطاق؟ كلاّ، إنه الفزع، إنه الفرق الأعظم، والحامل، ممَّا تضع حملها قبل أوانه؟! إنك قد تقول للمرأة إن ابنك دعس فمات وهي حامل، فلا يسقط جنينها، وقد تقول للمرأة: إن أباك أو أخاك أو زوجك قتل، وهي حامل فلا يسقط حملها، وهي أمور بالنسبة للمرأة تقطع القلب، وتطيل الثكل، ومع هذا تتحملها. إذاً الزلزلة شيء آخر، شيء أدهى وأمر من كل النكبات التي قد يمر بها الإنسان في الحياة، إنها شيء لا يقدر على وصفه إلا منزل هذا الكتاب، فقد وصفه وصفاً لا يستطيع وصفه شاعر أو كاهن أو أديب متمكن، حيث وصفهم بأنهم (سكارى وما هم بسكارى). أرأيت دقة الوصف الذي أجهدنا وأجهد المفسرين أنفسهم في شرحه، فنعود

---

(١) سورة الحج: ١ ـ ٢.

لنستشهد بألفاظه حرفياً .

فيا لهول ذلك اليـوم ، ويا للناس كيف عنه يغفلـون ، وهذا مصداق قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(١).

اغترار الانسان

فإذا أعطـى الله الإنسان مالاً وولداً وصحـة وجاهاً ، فـإذا هو يغترّ ، ويظن أن هـذه النعم لا تـزول . يا لجهـل الإنسان المسكين ، ويـزيد أمـلاً وبخلاً ، فيحـرم الفقراء فضول أمـواله التي فرضهـا عليه ، بل ويـزهو على صاحبه ويفخر بها آتـاه الله ، ولم يعلم أن الله له بالمرصاد . فاسمـع قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۞ لَّٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۞ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾(١).

فهذا رجل فاض عليه الرزق حتى صار له بستانان، فيهما النخل والعنب والزرع، فطابت ثمارها وأينعت، وكان الماء يجري من تحتها، فدخلها مزهواً ومعه صاحب له، فهو يقول له: ألا ترى مالي وأولادي؟ ما عندك أنت؟ هكذا مفاخراً متفاخراً، ولم تجد معه موعظة صاحبه الذي قال له: إن قولك هذا كفر بمن وهبك هذا الخير العميم. لكنه عصى وتجبر، فأرسل الله عليها أمره بياتاً فدمرها تدميراً، فلم يجد من دون الله ناصراً.

وما أكثر مثل هذا في زماننا، فمنع كثير منهم زكاة ماله وبخل، وأي بخل كمن يمنع ما فرض للناس في ماله، فسلط الله على بعضهم الحرق

---

(١) سورة الكهف: ٣٢ ـ ٤٣.

والغرق والمصادرة، ففات مع الزكاة المزكَّى.

وهؤلاء قوم أعطاهم الله أرضاً زرعوها فأثمرت وأينعت وحان قطافها، فصار الفقراء يمنون أنفسهم أن ينالوا منها خيراً يوم الحصاد، ولكن أهلها دبروا تدبيراً وخططوا تخطيطاً أن يذهبوا إليها مع الفجر قبل أن يستيقظ الفقراء، وأقسموا على ذلك، وغدوا من الصباح وهم يتهامسون بينهم لئلا يسمعهم أحد فيستيقظ، وتواصوا بإغلاق بابها حتى لا يدخل المحرومون طالبين الشبرة.

ولكن الله كان أعلم منهم بما يضمرون ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ ناقماً عليهم ما يبخلون، فأسرى عليها بها دمرها تدميرا، فجعلها حسرة على أهلها وعبرة لمن بلغه خبرها، ولكن الإنسان كثير النسيان، وما أكثر العبر وما أقلّ الاعتبار، فلقد رأينا ناساً يغبشون إلى نخلهم يجدُّونه قبل أن يستيقظ الفقراء على قلة نومهم، فإذا علم هؤلاء فزعوا إليهم، بين طاعم ومتشبّر فإذا رأى أصحاب النخل ذلك أوقفوا الجداد وانصرفوا، فإذا جاء وقت الظهيرة وانصرف الناس عادوا يجدون! رأيت ذلك في الصغر، فمازال الله بهم حتى جفت أنهارهم، ويبس نخلهم وزرعهم فتفرقوا في البلاد، ﴿**فأصبحوا لا يرى الاّ مساكنهم**﴾.

فسبحان معيد العبر، ﴿**فاعتبروا يا أولي الألباب**﴾.

وهذه قصة أصحاب الجنة:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۞ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ ٱغْدُوا۟

عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۞ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۞ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۞ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۞ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۞ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۞ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۞ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وعادوا باللائمة على أنفسهم، وتذكروا بعد غفلة، وأخلصوا التوبة، فعسى الله أن يتوب عليهم ويعوضهم خيراً منها، فقد وعد الله من تاب وآمن أن يبدّل سيئاته حسنات، كرماً منه وتكرماً ومكافأة لهذا العبد الآيب، المعترف أنه لا مفر من الله إلاّ إليه، وأن رحمته وسعت الطائع والعاصي إذا أقلع عن معصيته. وفي الحديث الشريف: (إن فرحة الرب سبحانه بتوبة عبده العاصي كفرحة رجل ضلت راحلته وهو في الصحراء، وعليها زاده وماؤه، فنام تحت ظل شجرة وقد يئس من الحياة، فما راعه إلاّ وراحلته واقفة على رأسه، فقال من شدة فرحته: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك». يريد أن يقول: «اللهم أنا عبدك وأنت ربي» فغلط من شدة الفرح).

---

(١) سورة القلم: ١٧ ـ ٣٣.

ويتحداهم الله

ولما لم يرعو العصاة والفسّاق والطغاة ولم يعتبروا بما رأوا، عاد يتحداهم بأسئلة استنكارية، يرون جوابها ويلمسونه بأيديهم، يسألهم ويعنفهم لعلهم يقولون: بلى، ربنا، نعلم ونؤمن به. فقال أصدق القائلين:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

يقول سبحانه: ألم تروا أنا جعلنا هذه الأرض التي تبدو في نظركم صغيرة ضيقة بالنسبة إلى الأعداد الهائلة المتنامية على ظهرها، جيلاً بعد جيل كافية لكم؟! أحياؤكم على ظهرها، وموتاكم في بطنها، تأكلون وتسكنون، وتسيمون أنعامكم، وفيها تدفنون، فلم يضق ظهرها ولا بطنها بشيء من ذلك. صنع من هذا؟! إنه صنع الله، ولستم بقادرين على شيءٍ منه، ولا مما دونه، ولو سلبكم الذباب شيئاً ما أخذتموه منه بقوة وقهر. ﴿**ضعف الطالب والمطلوب**﴾(٢). أأقررتم؟ فإذا لم تقروا بهذا ولم تتصوره عقولكم فيقول جل وعلا: ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون* أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون**﴾(٣).

ألم ترفعوا أيديكم إلى السماء إذا أمحلت تطلبون من الله إنزاله، فإذا أنزله قلتم مطرنا بنوء، كذا وكذا؟.

ألم تحرقوا العُشَر على رؤوس الجبال استمطاراً، ولم تمطر بفعله، ولكن

---

(١) سورة المرسلات: ٢٥ ـ ٢٨.

(٢) سورة الحج: ٧٣.

(٣) سورة الواقعة: ٦٨، ٦٩.

قد يشبه لكم. أأسلمتم أم أنكم لا تؤمنون؟! فإذا كذبتم، فيقول الرب:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾[١].

إنما يأتي بـه الله، وخاب الجاحـدون، وخسر من لم يـؤمن ويتعـظ، فيقول: ﴿آمنا به كُلٌّ من عند ربنا﴾[٢].

وينكث الإنسان بعد الإيمان

هذا الإنسـان العجيب الأطوار، يظل ـ أبداً ـ نفعياً، فـإذا عرف أن هذا الغرض لا يقضيـه إلاّ فلان، رأيته يتقرب إليه ويتودد، فـإذا قضى منه أرباً لوى له عنقاً، ونسي لهاثه وتنكيس رأسه. حتى مع الله يفعل الكافرون مثل هـذا، فإذا أصابتهم مصيبـة دعوا الله وحده، لا يشركون معـه أحداً، فإذا زال الخطر فإن الإنسان كفور جحود، ولذا يقول الواحد الأحد:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٣].

أرأيت هذا الإنسان الجحود النكاث؟ عندما ركب في السفينة وأحاط به الموج كـالظلل، قال: (يـا رب يا منجـي لا إلّه إلاّ أنت) ونسي مـا كان يدعو من شركاء، لعلمه أنـه لا دور لهم في مثل هذا، فهم رفاق المشرك في العافيـة لا في الملمات، وأقسم الإنسان أن يجعـل دينه وإخلاصـه كله لله، حتى إذا وصل إلى البر، ورأى بـزعمه أنه أمن، عـاد يدعو من كـان يدعوه

---

(١) سورة الملك: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٥.

من قبل، وكأن لسان حاله، لسان حال ذاك الذي قيل إنه أسلم لغرض فلما قضي اختفى عن الأنظار معلناً كفره فقال:

صلّى المصلّي لأمرٍ كان يقصده
فلما قضي الأمر لا صلّى ولا صاما

فأي عقول هذه التي تتعامل مع العلي القدير على حساب المصلحة، نعبدك ما دمنا في ورطة، ونتركك إذا سُلّيَ عنا.

واسمع هذا الشّخص الساذج يقول:

لي صحيب كهكهاني   وأنا كذا له كهكهيت
إن طلبت ما عطاني   وإن طلبني ما عطيت

يقول: نتبادل أنا وصديقي الضحكات (الكهكهة)، ولكن لا أعطيه شيئاً ولا يعطيني شيئاً. فهذا على سذاجته أفضل عقلاً من المشركين، لأن المشركين يعطون أربابهم من أموالهم، بل قد يعطونهم خيارها، ولكنها لا تعطيهم شيئاً، سوى الصمت، صمت الأموات، ولا برهان على ضرها أو نفعها لهم لو كانوا يعقلون.

ولكنهم يصرون على عبادتهم رغم البراهين التي يقدمها المعبود بحق، حين يطلبونه فيستجيب لهم، ويجزونه نكراناً وعقوقاً، تعالى الله عما يشركون.

بين ضعفين

هذا الإنسان خلقه الله وسيّره في هذه الحياة بين ضعفين يشاهدهما بعينه، فهو يرى ابنه يحبو لا يستطيع أن يمنع نفسه من ذرة، فيعلم أنه كان كذلك، فإذا أدار نظره ناحية أخرى رأى أباه أو جده، وأُمهُ أو جدته، وقد دخل الوهن إلى عظامهم، وانحنت ظهورهم، فعادوا ضعافاً كما بدأوا، أليس في هذا عبرة؟ فينظر إلى قوة كهولته، فيتزود إلى المآل الآخر؟!

﴿**إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾[١] أي ذوي العقول الراجحة الذين يأخذون العبرة مما حولهم، فيهتدوا بنيّرها إلى أن كل هذا الكون هو بيد مكونة، وأنه الحاكم العادل، يجزي الذين أساؤوا بها عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، إنه غفور رحيم، ولكنه شديد العقاب.

يقول جلّ وعلا:

﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ** ﴾[٢].

أترى؟ ضعف ثم قوة ثم ضعف الشيخوخة حين تقوم على يديك، وتدب دبيباً! عندما يشيب الرأس وتشيب اللحية، إن هذا الشيب هو نذير بأن خير ما فيك قد أقفى، يقول:

وإن أتوك وقالوا إنها نَصَف فإن أمثل نصفيها الذي ذهبا

فالدراك الدراك، قبل: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون* إلّا من أتى الله بقلب سليم**﴾[٣] يوم يحلف المجرمون أنهم لم يعيشوا بل يعيشوا في الأرض غير ساعة واحدة، وكذلك إذا بعث الانسان وقام من مرقده الأخير، لا يرى أنه لبث غير يوم أو بعض يوم.

إن هذه الرقدة محطة، ولكنها قد تكون محطة على طريق الجنة، أو محطة على طريق جهنم، فكلٌّ لاقٍ ما قدمت يداه، إلّا من رحم الله ﴿**وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى**﴾[٤].

---

(١) سورة الزمر: ٢١.
(٢) سورة الروم: ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٤) سورة النجم: ٣٩.

٥

الآيات التي يذكِّر الله جل جلاله فيها عباده بنعمه ويمتنُّ عليهم

إن معظم الآيات التي يعد الله عباده بها أو يخوفهم، أو يمتنُّ عليهم بها ويدعوهم للإيمان بها، أكثرها يرونها أو يلمسونها بأيديهم، ويقصها عليهم من كان قبلهم في كتب منزلة وغير منزلة، فإذا أفحمهم، قذف إليهم بالمغيبات وعداً أو وعيداً، وكأنه جلّ وعلا يقرر عليهم أن هذه كتلك، فما دمتم عرفتم هذه، فاعلموا أن من صنعها قادر على صنع ما يعدكم به غيرها. فتراه يأتي إلى موضوع لا يكاد يحزبهم أمر حتى يلجأون إليه، وهو الدعاء، فيزيل الله ما بهم، فلهؤلاء نقول: أنتم دعوتم عند الشدة فأزال ما بكم، وهذا دليل دامغ على أنكم دعوتم سميعاً مجيباً، وأحداً أحداً، ولو كان معه غيره لاختلفوا في الإجابة، أو وافقوا مرة ورفضوا مراراً. فاتقوا الله وأصلحوا من نفوسكم، فليس من مجيب ولا عوين سواه.

واسمعه يقول:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١).

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

يقول سبحانه : أنا قريب من عبادي ، أسمع دعاءهم وألبي مضطرهم وأغيث ملهوفهم ، فعليهم أن يستجيبوا ويؤمنوا ، لعلهم بعد ذلك يفحلون .

فلما خلص من هذا ، قال لهم :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

ذو النون : نبي الله يونس بن متَّى ، بعثه الله إلى أهل نينوى بالعراق ، فدعاهم فكذبوه وآذوه ، فذهب غضبان ، فقذف بنفسه في دجلة ، فالتقمه حوت عظيم ، فعلم يونس عليه السلام ، أنه لا مفر من الله إلاّ إليه ، فأخذ يستصرخ الله ، ودعا بهذه الدعوة العظيمة فنجاه الله بالإيحاء إلى الحوت أن يقذفه إلى الشاطىء مكلوماً ، مغمى عليه ، فأنبت الله عليه شجرة القرع تظلله حتى أفاق ، فقال : ﴿**وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾[2] ثم أعاده إلى أهل نينوى ، فلما رأوه حياً بعد أن رأوه يقذف بنفسه في البحر، آمنوا .

وهذه الدعوة ﴿**لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾[3]، ما دعى بها مكروب إلاّ فرَّج الله كربه ، ومظلوم أو مقهور، إلاّ استجاب الله له ، وكأن الله جلّ وعلا يقول لهم : أنتم سمعتم بقصة ذي النون ، وعلمتم ما عملنا له ، وصلت إليكم في الكتب القديمة ، وها أنا أجددها في القرآن ، ادرسوها وجرِّبوها فإذا وجدتموها حقاً ـ ولن تجدوها إلاّ كذلك ـ

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) سورة الصافات : ١٤٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ٨٧ .

فأين تذهبون؟ أليس القادر على الإجابة بالغيب قادر على ما تشاهدون؟

أرأيتم؟

إذا قال الله لعباده: (أرأيتم) فهو تأكيد مع التهديد، يقول: ألم تروا كذا وكذا، فلو سلبناه منكم من زعيم برده إليكم؟ إلاّ أن تجأروا إليه بالشكوى وتستغيثوه، فيرفع أو يعطي أو ينجي، كل ذلك عنده بغير حساب، ﴿**وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم**﴾(١).

فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢).

انظر أيها الإنسان، لو أن الشمس ظلت ثلاثة أيام فقط لم تطلع، ماذا يحدث في هذا الكون، وأي إرباك يحدث للناس، كيف ومتى ينامون، ومتى يذهبون أو يعودون من أعمالهم ومدارسهم، ونظام طعامهم! أرأيتم عظمة نظام الخالق؟ ولو أن الشمس ظلت مثل ذلك لا تغيب، ما الذي يحدث؟ تفكر أيها الإنسان، تفكر قليلاً فيما يحدث، لكن قليل منا هم الذين لديهم استعداد للتفكير. قلت لشخص مرة كان يناقشني في أمر: فكر وستجد الطريق بنفسك. قال: لا، أنا ما عندي استعداد للتفكير.

---

(١) سورة الحجر: ٢١.

(٢) سورة القصص: ٧١ ـ ٧٢.

أي لا يرغب في مجرد التفكير. أرأيتم؟ أمثل هذا يستطيع أن يستنتج شيئاً؟

إذاً هناك ملك واحد متفرد بهذا الكون، نظَّم الشمس فانتظمت، ونظَّم القمر فانتظم، فتقرر بانتظامهما نظام الليل والنهار، فصار إصباح وإمساء، وشروق وغروب، بنظام عجيب يسمح بتغير الفصول، ليوالي الله على الإنسان تغيير الزمن بين صيف وشتاء، وخريف وربيع، ليخرج من مناسبة إلى مناسبة، فيرى الحياة جميلة متجددة. ولكن يطلب منه أن يشكر هذا المنعم المتفضل، ﴿**وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾[1].

وهذا الإنسان الذي رأى الكون جميلاً بما كوّنه الله، طفق فيه يزرع ويغرس ويرعى أنعامه، ولكنه لاحظ أن عمله هذا يتأثر بعوامل لا طاقة له بها، من أهمها نزول المطر، لينبت الزرع والمرعى وتدر الماشية، وتسمن، فيشرب ماءً عذباً ويأكل لحماً طرياً، وطعاماً لذيذا. فأخذ ينظر نحو السماء، حيث يعلم من حيث يأتي الغيث، وأدرك بثاقب بصره وفهمه أن لهذا الغيث مقدمات ومبشرات، يستبشر بها قبل أن يهطل المطر.

يقول منزل الغيث:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2].

ويقول جلّ جلاله:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ

---

(١) سورة إبراهيم: ٧. (٢) سورة الروم: ٤٦.

يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۞ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[(1)].

فسمى المطر رحمة، وانه لكذلك، ألم يقل جلّ وعلا ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾[(2)].

فلم يستثن شيئاً، ثم يطالبنا بالشكر وبالشكر تدوم النعم، وبالشكر تتم الصالحات.

فإذا أرسل المبشرات أثارت سحاباً فتراكم في السماء، فأبرق وأرعد، فانهمر الودق، ففرح الإنسان، وكان قبله حزيناً منقبض النفس.

أليس منشىء السحاب ومهطل المطر أهلاً للشكر؟ بلى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فانظر إلى أثر هذا الخير وهذه الرحمة على وجوه الناس حين ينزلها، وانظر مرة ثانية عندما تصبح الأرض مخضرة، أليس الذي أحياها بقادر على إحيائكم بعد موتكم؟ بلى، وهو بكل شيء عليم.

فيا من أخذته الحياة الرخيَّة، انظر وتفكر، فلولا الله ما كان لك هذا الرخاء، ويا أيها الغافل تنبه، قبل أن تنبهك الخطوب، وتذكر دائماً أنّ رحمة الله قريبة من المحسنين.

---

(١) سورة الروم: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

ثم هذا الماء الذي تشربون، الذي أنزلناه من المزن، أأنتم قادرون على إنزاله؟ وهل تستطيعون أن تجعلوه عذباً أم ملحاً؟.

فيقول:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

يقول: لو أراد ربك لجعله ملحاً أُجاجاً، فَلِمَ لم تشكروا الله على هذه النعمة التي لا تقوم الحياة بلاها.

ثم أن هناك شيئاً آخر لا تقوم الحياة من دونه، أنسيتموه؟ إنّه النار التي تقدحون فتشب وتستعر، فتطبخون وتأكلون، فمن فهمكم استخراجها من شجر خصه الله بها؟

فيقول:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾[2].

يقول سبحانه: من أنبت هذه الشجرة التي تقدحون النار منها (تورون). الإيراء: أن تقدح بالزند على الصُّوَّان فيخرج منه شرار، أو حَكُّ عود من المرخ على عود فيشتب.

وقد أدركنا ـ قبل شيوع الكبريت ـ الزند في كل بيت في البادية، وهو عبارة عن حديدة شبه مثلثة الشكل، لها عروتان في أعلاها يمسك القادح

---

(١) سورة الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.
(٢) سورة الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

(الموري) بهما، ثم يقدح بـالطرف المقابل على صُوَّانة (وهـو حجر معروف) وإلى طرفهـا معمول قـابل لـلاشتعال يسمـونه الضُّرْم، فتخـرج شرارة من الصـوانة فتعلـق بالضُّرْم فتحـدث النار، هـذا الضُّرْم مأخـوذ من إحـدى أشجار النار الثلاث، وهي: القَفَـل، والمَرْخ والعَفَار. وقيل: بل والعُشَر. أما الإيراء مـن الشجر مباشرة فلم ندركـه بل أدركنا من كانـوا يستعملونه. حك بعض هذه الأشجار بعضها ببعض بطريقة يعرفونها فتحدث النار.

صورة تقريبيـة للزند:  لذا نجد أن الإيراء مـن شجرة النار كان هو الأساس، والمشاهد إلى قبل قرن تقريباً[1].

يقـول ربنـا تبـارك وتعالى، في الآيـات السـابقـة: ﴿**نحن جعلناها تذكرة**﴾ كـي يتفكر الإنسـان كيف يخرج الله لـه من الأرض كـل ما يحتـاج إليه، فإذا أراد الطعام وجد مـن الأرض نباتاً يخرج الحب، فإذا أراد طهيه، وجد الماء المساعد على ذلك، والنار في أقرب الشجر من الأرض.

﴿**متاعاً للمقوين**﴾ المقويـن: الجياع. يطبخـون عليها طعـامهم، ويصطلـون من البرد، ويسخنـون الماء عليها لـلاستحمام والـوضوء. فـإذا رأيته فكبِّر الله واشكـر، وذكِّر نفسـك ومن حولـك أنها آية مـن آيات الله، ينفع الله بها عباده.

ثم يأتي جلّ جلاله بالخبر التأكيدي، فيقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[2].

---

(١) آخر ما رأيته يقدح به كان قبل ٤٠ سنة، والتحديد سنة = ١٣٧٠هـ.
(٢) سورة النبأ: ١٤ ـ ١٦.

أنزلنا المطر من السحاب ﴿**المعصرات**﴾ يثج ثجاً، أي يصب غزيراً، ومن ينزله غير الله؟!

أما ما يأتـون به من حيل باسم المطـر الصناعي، فهذا لا يحدث أولاً إلاّ مـن المزن الذي أنشـأه الله، ثم إن الله ألهم الإنسـان كثيراً من الجزئيـات التي نظن أنها قهـرت الطبيعة كما يقولون، وما أوتيتم مـن العلم إلاّ قليلاً، والله هو الذي خلق الإنسـان أصلاً، فإذا كل ما يعمل الإنسـان هو نتيجة خلقه الأول، فقد أوجد الطبيعة ثم أوجد لها الإنسان، فسلط بعضهما على بعض بأسباب يسببها الأحد المتفرد بعلم ما حدث ويحدث إلى ما شاء الله.

لقد تقدم العالم اليوم تقدماً بـاهراً، في نظر العالم نفسه، لكنه في نظر الخالق لم يبلغ من علمه مثقال ذرة، وهو القائل: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا**﴾(١).

والقائل جـلّ وعلا: ﴿**قـل لو كـان البحـر مداداً لكلمات ربي لنفـد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً**﴾(٢).

كلمات ربي: علمه. ولو جـيء بكل البحار، ومثلها معهـا فجعلت مداداً لعلمه، لنفدت جميعها وعلـم الله باق. إن في هذا لمتفكّر لمن أراد أن يتفكر، ونظر لمن أراد أن ينظـر، ولكن كثيراً منا عنه غافلـون، (يأكلون كما تأكـل الأنعام) لا تدري كيـف يهطل المطـر ومتى ينبت المرعـى، ولا متى يعدو عليها الذئب، أو يغير عليها المغير، إنما هو أكل وشرب، ولعب ولهو حتى يأتي هادم اللذات ومفرق الجماعات، ولات ساعة مندم.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.

ويذكرهم الله

وما أكثر ما ذكر الرحمن وبلّغ، وقص وأخبر، ووعظ وحذّر، وما استفاد من ذلك إلاّ قليل من عباده، فعسى الله أن يرحمنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا. وهو يقص علينا كيف أنقذ من نتحدر من سلالاتهم من الغرق، عندما كانوا لا يعرفون الاّ المشي على البسيطة، فأوحى إلى أبينا الثاني نوح عليه السلام، أن اصنع الفُلك (السفينة) وخذ أهلك وما قدرت من الحيوانات فإني مغرق الكافرين. يقول سبحانه:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۞ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۞ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1].

أنجينا المؤمنين من بني آدم في السفينة المشحونة بهم وبما ينفعهم، ثم خلقنا لهم من مراكب أخرى. ولا زال الله يلهمنا ما نصنع حتى سرنا في البر بسرعة السحاب، وطرنا في الجو، وعلونا القمر، ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾[2].

ويذكّر العزيز الحكيم هذا الإنسان بأنّه لو شاء أغرقه، ولن يجد من يسعفه مادام الله هو المنتقم. في كل هذا التذكير بالنعم والرحمة والمتاع، لا يريد منا أن نساعده في ملكه فهو أقدر، أو نرزقه أو نطعمه، إنما يريد فقط أن نؤمن به وبقدرته، وأنه قادر على أن يدخلنا الجنة أو النار، وأن ينصرنا أو يخذلنا نتيجة لمعاملتنا إيماناً أو كفراناً.

---

(١) سورة يس: ٤١ ـ ٤٤.

(٢) سورة النحل: ٨.

يقول ناصر المؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1].

هذه قصة رؤوس الكفر من مشركي العرب واليهود، ومن شايعهم من المنافقين والأعراب، تجمعوا وتحزبوا ليطفئوا نور الله، ويقضوا على من أرسل رحمة للعالمين، طوقوا المدينة وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، حتى هَمَّ كثير من المؤمنين أنفسهم، وأرعد المنافقون من الداخل، ﴿**وبلغت القلوب الحناجر**﴾[2] أرأيت أبلغ من هذا التعبير؟! وأرسل الله جنوده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذه أمم الكفر تتكالب علينا في فلسطين وأفغانستان وكشمير، وأريتريا، وغيرها وغيرها، من حدود اليابان إلى غرب أمريكا، هم في هذا يشبهون الأحزاب في محاولتهم طمس الإسلام وضعضعته وجعله تابعاً ذليلاً، ولهم فينا سمّاعون صداقون يصدقونهم فيما يدّعون أنهم لا قضية بينهم وبين الإسلام؛ فإذا صدقوا فما بال فلسطين تقضم كسرة كسرة وهم ينظرون، ولا يعملون بما به يتكلمون، وما بال

---

(١) سورة الأحزاب: ٩ ـ ١١.

(٢) سورة الأحزاب: ١٠.

شباب الإسلام في فلسطين تكسَّر أعظمه وتدك أسنانه، وتلفزيونهم يصور، وينشر ذلك على الملأ، فلا يثير فيهم رحمة ولا رغبة لعدل، بل ربما كان منظراً مبهجاً بالنسبة إلى من يدَّعون أنهم حماة حقوق الإنسان، أم أن الإنسان هو الأوروبي والأمريكي، وأن من تفوح من أفواههم رائحة (لا إله إلاّ الله) ليسوا من الإنسانية في شيء.

وأنتم أيها المسلمون، يا من لكم القضية ومسجدكم الرهين المهدد بالهدم بين عشية وضحاها، ما بال سكوتكم الذي يشبه صمت المقابر، وأين جيوشكم التي تخبطون بها بعضكم وتهددون بعض؟؟. أتحذرون الموت وهو ملاقيكم؟ ولو كنتم في قصور ووراء حصون أو في جزر من البحر، أو تخافون عيلة والله وعدكم الغنى من فضله؟ تظنون أن الكافرين سيناصرونكم على بعضهم؟ والكفر ملة واحدة؟ ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾(١).

﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾(٢).

وقد وعدكم الله (أيها المسلمون) ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فقال:

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۞ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۞ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۞ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا * وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾(١).

لقد علم العليم الخبير ما تشتهون فأخذ يعدد عليكم ما يعدكم إذا أنتم استقمتم على الطريقة، ﴿**وألّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً**﴾(٢).

فقال جلّ جلاله: إن الذين يسبقون بأعمال الخير والبر والإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكف الأذى وصلة الرحم... إلى غير ذلك مما يرضي الرحمن ويخزي الشيطان وحزبه، أن يقربهم يوم القيامة، ويدخلهم جنة عرضها السموات والأرض ﴿**لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون**﴾(٣).

---

(١) سورة الواقعة: ١٠ ـ ٤٠.

(٢) سورة الجن: ١٦.

(٣) سورة الصافات: ٤٧.

فعدَّد ما أعد لكم من شراب مشتهى وطعام لذيذ وفواكه، وكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والظل الذي تشتاقونه في الدنيا سيكون لكم هناك ممدوداً، إلى ما لا ينفد مما تشتهون من المؤن، ثم لم ينس وهو الذي لا ينسى حاجاتكم النفسية الملحة، فيبشركم بزوجات كرام كأنهن اللؤلؤ المكنون، لو ظهر أصبع إحداهن على وجه الأرض لَفَتَنها، ثم زاد في الترغيب فجعلهن أبكاراً غُنُج متحببات للمؤمنين، ﴿**أبكاراً* عرباً أترابا**﴾[1]، أتراباً: من جيل واحد، في سن واحدة وجمال واحد أخاذ يروع الناظر ويأخذ بالشغاف. فأي إكرام بعد هذا، وأي جزاء للمحسنين، لا منّ فيه ولا أذى. ثم يمد في الأمل الرب الكريم، فحتى لا تظن أن الأولين ذهبوا بالفضل كله، يطمئنك المنعم بأن هؤلاء الموعودين هم طائفة من المتقدمين، وطائفة من المتأخرين، وأنك من الممكن أن تكون منهم إذا أحسنت عملاً ﴿**إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا**﴾[2].

﴿**وقل اعملوا فسيرىٰ الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[3].

---

(١) سورة الواقعة: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الكهف: ٣٠.

(٣) سورة التوبة: ١٠٥.

٦

الآيات الدالة على علمه الغيب
وما لا تدركه الأذهان ولا الأسماع

إن كل ما خلق الله من السموات والأرض وما فيهما وما بينهما دليل لا يحتمل الجدل ولا المناقشة على أن الله يعلم كل دقيقة وجليلة فيه، لا يعزب عن علمه شيء، ولو مثقال ذرة، أي وزن ذرة من النمل أو ذرة من التراب.

ولكن هذه الأمور تتفاوت في الغيبية، فمنها ما نعلمه بالاكتشاف المباشر، ككروية الأرض والكواكب السيارة، والحمل والولادة، والزرع والحصاد، إلى آخر ما هو في عالم المنظور وعليه مدار حياة كل كائن حي، ومنها ما نعلم بالتعلم، والبحث والتجربة، فنكتشف كل يوم علماً جديداً مما أذن الله لنا بمعرفته، وستستمر البشرية في مثل هذه الكشوف إلى ما شاء الله. والقاعدة: أن كل ما غاب عن أعيننا وعقولنا هو غيب بالنسبة إلينا، إلّا أن هناك علوماً غيبية لا يمكن أن يطلع عليه الانسان مهما أوتي من قوة، وكل ما علمه الإنسان سابقاً أو لاحقاً ليس هو من هذا الغيب الخاص بالله.

فمثلاً: لن يستطيع الانسان مهما أوتي من علم، وقدرة على البحث، مهما ادعى شعب بأنه أذكى من شعب، فإن أحداً لا يستطيع أن يعلم، ومرة أخرى أقول: مثلاً لا حصراً، لا يستطيع أن يعلم هل تحمل امرأته هذه السنة أم بعدها، وهل تلد ـ إذا حملت ـ بنتاً أو ولداً، وهل يعيش أم يموت، وإذا عاش أيكون براً أم فاجراً؟!

وهو نفسه وأنت وأنا، ترى متى نموت، وكم نبقى حتى نبعث، وإذا بعثنا كم نمكث تحت الحساب؟! وما أكثر ما يعجز الانسان عن علمه، ككمية المطر التي ستنزل هذه السنة، وصلاح الزرع، والحروب المقبلة، وتغيير الدول، وغيرها، وغيرها، مئات المسائل غائبة عن علم الانسان، أما ما يشيع الكهان حول عناصر من هذه، فما هي إلاّ وسوسة الشياطين وكذب المنجمون ولو صدقوا[1] وفي الحديث (من أتى كاهناً أو منجماً فصدقه، كذّب بما أنزل على محمد).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[2].

وهكذا أعظم المغيبات إلحاحاً على الانسان، وأكثرها عليه استعصاءً هي الساعة ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها**﴾[3] ﴿**ثقلت في السماوات والأرض**﴾[4] أي استبهمت على الملائكة والجن والانس ﴿**لا تأتيكم إلاّ بغتة**﴾[4] ولا ينزل الغيث إلا بعلمه، وما يعمل اليوم من مطر بأدوات صناعية، هو من علمه، أنشأ السحاب ومرره في السماء وعلم الانسان كيف يستمطره، ﴿**علم الانسان ما لم يعلم**﴾[5].

ولن تعلم نفس رزقها غداً ولا تدري أتموت هنا أو في أقصى المعمورة، أفي البر أم في البحر، أبالمرض أم بالحوادث الفجائية.

---

(١) حديث شريف.
(٢) سورة لقمان: ٣٤.
(٣) سورة النازعات: ٤٢.
(٤) سورة الأعراف: ١٨٧.
(٥) سورة العلق: ٥.

لكن الله يعلم ذلك، وقد كتبه في لوح القدر:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

هذا هو علم الغيب وليس قول الخراصين.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٢).

وكونه ﴿لا إله إلا هو﴾ تتناسب مع كونه عالم الغيب والشهادة، ولكن ما بال آلهة لا يعلمون شيئاً، ولا يَخْلقون، وهم يُخْلقون! وهؤلاء الهندوس يريدون أن يهدموا مسجداً في الهند مدعين أن إلههم ولد مكانه! أإله يولد كما يولد البشر ثم يعبد؟! أيعلم الغيب والشهادة؟! وهذا الإله قد مات من مئات السنين، أإله يولد ثم يموت؟! ولمن ترك عبيده؟! تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

إن إلهنا الله الذي:

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾(٣).

﴿لم يلد ولم يولد﴾(٤) لا يموت ولكنه يميت ويحيي، ويبعث

---

(١) سورة يونس: ٦١.
(٢) سورة الحشر: ٢٢.
(٣) سورة غافر: ١٩.
(٤) سورة الإخلاص: ٣.

ويحاسب ، هذا هو المعبود بحق ، وليس الذي يَخْلُق كالذي يُخْلَق . **﴿يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾**(١) .

إن الله حرم الجنـة على المشركين ، فكيف بمن يتخذ إلَهاً وثنـاً من دون الله ، ولد ثم مات فمن لك بعده؟ ! ألا تعبد الله الذي يقول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(٢) .

لا ينفد علمه ولا يعزب عنه شيء

يعلم دبيب النمل الأسود في الصخر الأسود في الليل المظلم :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٣) .

اللهم غفراً فكم أذنبنا متناسين هـذه العملية ، أو إنا عنها غافلون ، ولكنك الغفور الرحيـم ، هذا وعد منك ، قد استبشرنا بـه ، مع علمنا أنك شديد العقاب .

---

(١) سورة الرعد : ٨ .

(٢) سورة التوبة : ٧٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢ ـ ٣ .

وأن الساعة آتيـة، آمنا بذلك، وأن الله يبعث من في القبـور، صدقنا به، فنحن نرجو رحمتك ونخشى عذابك، ونحسن الظن بك، تعاليت.

وكيف لا يعلـم ما يدخـل في الأرض وما يخرج منها، وهـو القائل، جلّ من قائل:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

أليس القادر على خلق هذه الأرض من صحار وجبال وبحار وأنهار في ستة أيام فقط، ثم ﴿قدر فيها أقواتها﴾[2] بقادر على إدارة ما صنع ينشئه ثم يفنيه، ثم يعيده حياة أخرى لتجـزى كل نفس ما كسبت؟! أليس هذا بكاف عن كل إلـه، ألم يجمع بين يديه ملكوت كل شيء؟ وهـذه علامات صدق ماثلة بين أيدينا، ندعـوه فيستجيب لنا، تقشعر الأرض فنقوم إليه: يا رب، يـا رب! فيرسل السماء علينـا مدراراً، نـدعوه على الظـالم فيمحقه ونحن ننظر، ندعوه بالشفاء فإذا نحن معافون كأن لم يمسسنا ضر قط!

هذا هو ربنا الذي لا نقاتل الناس عن مكان مولده، ولكن ننظر إليه في السماء، ونمد يـدينا فيراها ويستحـي أن يعيدها فـارغة، لأنه الكـريم المعطاء، الغني الحميد، الرؤوف الرحيم.

يقول تعالى على لسان لقمان الحكيم:

---

(١) سورة الحديد: ٤.

(٢) سورة فصلت: ١٠.

﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [1].

هكذا قال لقمان عليه السلام، وهو يعظ ابنه، ويخبر أنه لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، وأنه يعلم ذلك ويعامله بلطفه وخبرته، ثم لا ينسى، وهو الحكيم أن يضيف بهذه المناسبة وبعد أن رقق قلب ابنه بالموعظة الحسنة، لا ينسى أن يذكِّر بالصلاة، وقيام الصلاة العمود الأشد للدين. وهكذا حكمة الداعية الذي يتمثل قوله تعالى: ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾[2] وانظر كيف بدأ لقمان النصح قائلاً: (يا بُنَيّ) وهو نداء التحبب كي يلين قلب الموعوظ.

ومهما وعظ الواعظون وكتب الكاتبون وألّف من يؤلّف، ما بلغ ذلك من علم الله الاّ ما شاء الله.

يقول العليم الحكيم:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [3].

أرأيتم أيها الناس! ضخامة هذا العلم الذي يستحق صاحبه أن يقال له: (علاّم الغيوب)!

---

(١) سورة لقمان: ١٦.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة لقمان: ٢٧ ـ ٢٨.

أين علمك يا من تدَّعي أنـك من العلماء؟ أيبلغ من هذا العلم شيئاً أو يقارن ببعضه، إن من يكون خلق هذا الكون وبعثه كخلق نفس واحدة وبعثها لهو العليم حقاً، وهو السميع السامع البصير القادر القاهر، المانع المعطي المميت المحيي، المعبود بحق، ومـن عبد غيره فبالضلال، فاعبده ولا تعبد غيره، واطلبـه ولا تطلب غيره، واخضع لـه ولا تخضع لغيره، إلاّ بما أمر وفرض.

كيـف لا تسلم جميـع أمرك إلى مـن يسبِّـح الطير والجبال بحمـده، ﴿وإن مـن شيء إلاّ يسبح بحمـده ولكـن لا تفقهون تسبيحهـم﴾(١) قال أصدق القائلين:

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾(٢).

وبعد هذا كلـه ما أظهر ـ سبحانـه ـ من علم، نجد مـن يسأل عن هذه الروح الدافعة في الكائن الحي.

هذا السر الخفـي الذي لا يقل إعجازاً عـن الساعة، بل هـو أعجز وأخفى، فيجيء الكفار يقولون: يا محمـد! ما هي الروح؟ فيجيب الرحمن عن نبيه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٣).

لم يشأ الله أن يطَّلع حتى نبيه على ماهيـة الروح، لأن أمرها منوط بيد

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٧٩.

(٣) سورة الإسراء: ٨٥.

الباري، يرسلها متى شاء ويقبضها متى شاء، ﴿**إنه بعباده خبير بصير**﴾[1].

ثم يؤكد لنا أننا ما نعلم من علم الله الاّ القليل، والروح من فوائق العلم الذي لم نرق إليه فما سؤالنا عنها؟!

وكأن الله جل جلاله لما اختص بعلم الغيب والروح وعلم الساعة، وهي أمور لا ينبغي علمها إلاّ للملك الديان خالق كل شيء، نقول ولا قول على الله: كأنه أراد إكرام نبيه بأمور تشف عما يأتي، وليست غيباً، ولكن علمها يسبقها فيستبشر بها المؤمنون، فأعطاه الله والمؤمنين (الرؤيا).

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله أول ما أعطي الرؤيا الصادقة، فكانت كفلق الصبح.

ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2].

قالوا ــ في تفسير ذلك: إن رسول الله ﷺ، رأى في منامه أنه يطوف بالكعبة، وفسر ذلك على ظاهره، فأخبر أصحابه بذلك، ولما صارت غزوة الحديبية في العام الذي بعده، ظن الصحابة أن هذا مصداق رؤيا النبي ﷺ، فلما عادوا ولم يعتمروا، قال بعضهم: ألم تخبرنا أننا سندخل مكة؟ قال ـ ما معناه ـ: بلى، ولكن هل أخبرتكم أنه في عامكم هذا؟ قالوا: لا.

---

(١) سورة الشورى: ٢٧.
(٢) سورة الفتح: ٢٧.

فنزلت الآية فكان الفتح بعد ذلك .

ولا زال المؤمنون ــ كثير منهم ــ يرون الرؤيا فيفسرونها مستبشرين، ويروى عنه ﷺ، قوله : (ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، الرؤيا الصالحة) .

ويقول : ﷺ : الرؤيا على جناح طائر، متى فسرت وقعت .

والروح تجري في كل كائن حي جرياً خفياً، لا يعلم منه صعودها ولا نزولها، ناموس من الله تبث الحياة في هذه الكائنات التي أصغرها أصغر من الذرة، وأكبرها كما يقول الأثاريون (الديناصور) وهو حيوان كان حياً قبل ملايين السنين .

ولكن لهذه الروح موعداً، إذا بلغته عرفنا مكانها، إنه موعد خروجها، إذا بلغت الحلقوم .

ويصفها ربها بقوله :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾[1] .

انظروا إلى هذا التأكيد الإلهي، إذا احتضر الإنسان جاءت روحه طالعة إلى حيث أمرها الله، إنه مخرجها الوحيد، هو حلق الانسان، فإذا مرت في الحلقوم قعقعت، فكانت النومة، نومة الفراق . كان الانسان في سعة قبل هذا، يذنب ويستغفر، يأخذ ويعطي، يقترف الكبائر ثم يتوب فيتوب الله عليه، حتى تصل الروح إلى هذه المنزلة، فيبطل العمل . وفي

---

(١) سورة الواقعة : ٨٣ ـ ٨٥ .

الحديث: (تقبل توبة أحدكم ما لم تقعقع) أو كما قال. وعندئذ أُقْفِل الكتاب على ما فيه، وكان قبل ذلك في فسحة، كان على العاقل المؤمن أن يهتبلها، أما إذا أقبلت صاعدة فما عاد ينفع قول ولا عمل. يقول جلّ جلاله:

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(١).

التراقي: ما يكتنف الحلق من عظام، حينئذ يعرف الموت، فهل من راق يرقى هذا المحتضر ليسلم ويشفى؟! كلاّ وألف كلاّ، لقد ظن أنه الفراق، وظن هنا: تيقن وعلم أنه فراق لا رجعة بعده، ووضع ساقاه إحداهما على الأخرى وكأنه مسافر! إلى أين؟! إلى الله ربه، العليم بحاله، ومن أي شيء هذا الوجل وطلب الرقيا؟! ألأنه لم يصدق بما أتى به محمد، ولم يؤمن بما أنزل من السماء، ولم يعترف بالصلاة فلم يصل، ولكنه كذّب كل ذلكم وأدار له ظهراً عندما كان شديداً خصيماً، فلما ذهبت القدرة، وجاءت سكرة الموت بالحق، فإذ هو يطلب راقياً فلا يجد، ومعيناً ولا سند إنما يولَّى ما تولَّى، ولا يظلم ربك أحداً.

---

(١) سورة القيامة: ٢٦ ـ ٣٢.

٧

الآيات الدالة على قدرته على الحياة والموت والرزق والنوم والمطر والرياح وغير ذلك

أخبرنا الله جلّ وعلا أنه عندما خلق السماوات والأرض جعلهما وعاء لكل ما سواهما من خلق الله وآياته، وأن قيوم قدرته على ذلك تأتي في قوله لأي شيء: (كن) فيكون.

﴿**ما خلقكم ولا بعثكم الاّ كنفس واحدة**﴾(١).

قدر في الأرض الإحياء والإماتة لحكمة إن علمنا منها شيئاً فهو قليل، فقد كتب الموت على كل حي من بشر وحيوان ونبات ﴿**يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**﴾(٢).

ويؤكد لنبيه ﷺ، وهو أكرم خلق الله عليه، فيقول: ﴿**إنك ميت وأنهم ميتون**﴾(٣).

ويقول تعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٤).

الذي يتبادر إلى ذهن المؤمن حيث يقرأ هذه الآية، أنه سؤال

(١) سورة لقمان: ٢٨.
(٢) سورة الحديد: ٢.
(٣) سورة الزمر: ٣٠.
(٤) سورة البقرة: ٢٨.

استنكاري توبيخي، ويلحقه بالتقريع (ألم تكونوا أمواتاً فأحياكم)؟ أي كنتم طيناً ثم صيركم بشراً، وكنتم ماء دافقاً ميتاً لا روح فيه، فإذا هو يخلق من الماء بشراً، ثم يميتكم إذا شاء وقضيتم قسطكم في هذه الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة، ولا مفر لكم يميناً أو شمالاً عن الرجوع إليه. ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾(١).

فأنتم راجعون إليه لا محالة، كمن يساق في فضاء ليس له الاّ منفذ واحد، يخرجون معه، ولله المثل الأعلى.

ويؤكد المميت المحيي أنه لا نفس إلاّ ميتة لا محالة، فيقول:

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾(٢).

ذائقة الموت، ولكنه مذاق مر، مذاق الفراق الأبدي إلاّ ما وعد الله المؤمنين في جنات النعيم، فإنهم يجتمعون ويتذاكرون، وكذلك أهل النار، ولكنهم يتخاصمون.

أما ما أصاب من خير أو شر فهو فتنة، أي امتحان واختبار، أترجعون إليه بالشكر على الخير، والاستغفار وطلب النجاة من الشر، أم أنكم سادرون لاهون غافلون، أتتكم النعم ففسقتم وطغيتم، وأذللتم الضعيف، واحتقرتم المسكين، وبغيتم على الأمم المستضعفة وجعلتموها توابع، واستنفدتم خيراتها بحكم القوي على الضعيف!.

ولكن الله اتخذ من المؤمنين عباداً لا تأخذهم في الله لومة لائم،

---

(١) سورة يس: ٨٢. (٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

يقيمون دينه ظاهرين على من عـاداهم إلى يوم القيامة، واتخذ منهم شهداء يستعذبـون الموت في سبيله، ينصرون الله، والله ناصرهـم، فكافـأهم ربهم بأن جعل موتهم حياة سعيـدة عنده في أعلى عليين، فمن يحرص على الحياة الدنيوية إذا اتحيت له الشهادة؟

يقول رب الشهداء، الله الذي أنزلهم أفضل المنازل:

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(1).

إذاً هـم أحياء، ولكننـا في هذه الـدار الفـانية، لا نعلـم أخبار مـن غـادرنـا، ولكـن الله يخبرنـا عنهم (فئـات) ففئـة المؤمنين في الجنـة، وفئـة الكافرين والفاسقين ومن لـف لفهم في النار، والشهداء يعجل لهم النعيم والرضوان، مستبشرين مسرورين.

يقول جلّ وعلا:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(2).

إذاً هم لم يموتوا إلاّ ريثما ينقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، ثم تعاد لهم الحياة، ويُجرى عليهـم الرزق، وأي رزق!؟ إنه رزق ليـس كرزقنـا يأتي بالكـد والسعي، والتعب والنصب، إنما هـو كمن استثمر أمـواله في تجارة رابحة يديـرها غيره، وتجبى إليه فـوائدها، فهو في رخاء غـدق، لا همَّ ولا

---

(1) سورة البقرة: ١٥٤.

(2) سورة آل عمران: ١٦٩.

حزن، ولكـن حتى هذا يظـل في خوف ووجل مـن كساد التجارة والـركود والحروب. أما أولئـك، فقد ضمن الضـامن الأكبر وكفـل المتكفل الأمين رزقهم، فهو يـأتيهم صباحاً ومسـاء لا يخشون انقطاعاً ولا منعـاً، فطوبى وحسن مـآب.

ومن هذا المقام نخلص إلى قوله ﷺ: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله). (وما غُزِيَ قوم في عقر دارهم إلاّ ذَلّوا).

وإن مـن آيات الله البـاهـرات، هـذه الجنة، فمـن مـلايين السنين والأرحام تدفـع والأرض تبلع، أناس لا يكاد يحصى من هـو حي منهم فما بالك بمن مـات خلال تلك الملايين من السنين، وما يولـد إلى يوم القيامة الذي لا يعلمه إلاّ الله، هذا الخلق الذي يصعب تصوره، يكون بعد الجزاء والحساب إما إلى الجنة أو إلى النار، فمن الآيـات المعجزات هذه الجنة التي تسع من أراد لهم السعادة بدخولها.

وكذلك النار. يقول المنعم المتكرم على عباده بدخول الجنة:

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾[1].

هم يـوم القيامة في شغل، ولكنـه شغل فكاهة ولهو، لا شغـل حرق وخزي كشغـل أهل النار، أعـاذنا الله وإياكم مـن النار. أهل الجنـة ذلكم اليوم في فـرح وبشر، أخوان على سرر متقـابلين، ولهم زوجات حسـان من الحور العين ومن صلح مـن أزواجهم، أي من آمن من زوجـاتهم في الدنيا

---

(١) سورة يّس: ٥٥ ـ ٥٧.

وأبناؤهم، وإخوانهم، كل هؤلاء ومن يحبون في اجتماعات وسعادة لا لغو فيها ولا تأثيم، وتحيتهم فيها سلام. ظل ظليل وماء ممدود، وفاكهة حسب الطلب، ولهم ما يطلبون من الله ﴿**ما يدعون**﴾.

هذا جزاء سعيهم في الدنيا، جزاء السجود والركوع، وجزاء الصيام والقيام، وجزاء مجالسة القرآن، والفاضلين من العلماء والمؤمنين، جزاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جزاء الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال والعلم، جزاء ما أنفقوا من أموالهم على حبها، وعلى شح الأنفس بها، وجزاء كل ما يأمر الله به ويرضى، وجزاء كل طيب من العمل حتى النية التي لم يعمل بها.

فسبحان الذي يعطي ولا يبخل، ويعد ولا يخلف، وعنده ما لا تنفد خزائنه، رب الملائكة ورب العرش العظيم.

والرزق آية

والمتفكر الواعي لا يكاد يخرج من أعجوبة في هذا الكون حتى يرى مثلها أو أعجب منها، فانظر إلى إعالة هذه الآلاف من الملايين البشرية، بل ومثلها من البهائم والحشرات والأسماك في البحار، ثم تفكر كيف ضمن الله رزقها، وتكفل به، فيقول: ﴿**وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها**﴾[1].

كل من دب على رجليه وما زحف على بطنه فرزقه على الله خالقه. ﴿**يرزق من يشاء بغير حساب**﴾[2].

---

(١) سورة هود: ٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٢.

والذين ينسبون الرزق إلى البراعة في الاحتيال، أو المهارة في التجارة يكذّبون الله، إنما جعل الله هذه أسباباً، فالسعي واجب وهو سبب من أسباب الرزق، ولكن كثره وقله يخضع لحكمة الله، فكم من يعلم الله أن غناه عليه وبال، وكم من يعلم الله أن غناه عليه بركة، وستر وسبيل إلى مرضاة الله، فهو يغني هذا لما يعلم، ويفقر هذا لما يعلم، فمن أراد به خيراً جعل غناه عوناً للمعسرين، وتقية عن الباخلين، وعبادة لمن أعطاه، وصلة لأهله وذوي رحمه، وكم من غني جيش الجيوش في سبيل الله، أو خلف غازياً في أهله بالمعروف، أو كفل أرملة أو يتيماً، فاستحق أن يكون جاراً لإمام المرسلين.

تجلي قدرة الله في رزق ما خلق

هذه المخلوقات الدابة على أديم الأرض، من إنسان وحيوان وحشرات، وما لا نراه، كل هذه الحشود تكفَّل الله برزقها كما يشاء، فمنها من له رزق يوم، ومن له مدخرات بالمليارات، حتى السباع تجد رزقها عند كريم مضياف، ألم تر إلى الذئب في البراري، مطرّد مشرّد يتحاماه الناس، فإذا هو يعيش ويتوالد، برزق الله وتدبيره، وهذه الطويرات الصغار تبكر من طلوع الضوء ثم تعود إلى أعشاشها في المساء شباعاً روياً. سبحان الرزاق الكريم ذي العرش العظيم. يقول الرزاق:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

يبسط الرزق لحالات عديدة، منها: أن يكون قدّر الله على يد هذا المرزوق الخير، فجعله غياث المحتاجين، مقرض المستقرضين، أو ناشراً

(١) سورة سبأ: ٣٦.

للعلم، أو بانياً للمساجد، أو حاملاً ديات عن الغارمين أو ساعياً على الأرامل واليتامى، أو حلاًّلاً لمشاكل الناس التي يحتاج الصلح فيها إلى الغرم.

وهذا النوع من الناس يكون رزقهم خيراً لهم في الدنيا والآخرة، يكسبون به في الدنيا الذكر الحسن، وفي الآخرة الأجر الجزيل.

ونوع آخر يرزقه الله فتنة له، فلا يغيث ملهوفاً، ولا يرفد مسترفداً مستفرداً، ولا يغرم عن مؤمن، وقد يستغل ماله في المحرمات والفسوق والفجور، من فواحش وخمر وربا، وغيرها.

وصفه الله فقال: ﴿**منّاع للخير معتد أثيم**﴾(١).

فهذا جعل الله غناه عليه وبالاً، متعة قليلة في الدنيا، ثم مرده إلى حيث وعده الله وأمثاله. ونوع آخر يكون رزقه شحيحاً لأمور يعلمها الله، قال تعالى:

﴿ **يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾(٢).

فهو عليم بأحوال العباد بصير بمن خلق، فهذا لو بسط الرزق له لربما طغى وتجبر، وآخر لو شح رزقه ربما سرق وفحش في سبيل المال، فإذا أراد الله بعباده خيراً جعل رزقهم على قدر ما يصلحهم، فمن يصلحه الكثير أعطاه الكثير، ومن يفسده الكثير قلل عليه لإصلاح نفسه، ولخيره لا لشره كما توهم بعض المقدور عليهم رزقهم.

وفي الحديث القدسي: (لو توكلوا علي حق التوكل لرزقتهم كما أرزق

---

(١) سورة القلم: ١٢.

(٢) سورة الشورى: ١٢.

الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً). وهنا يرينا الله العبرة من ذلك، إن البسط والقبض آية من آيات الله، وليس كما يقول المبطلون: (خبط عشواء). فيقول جلّ جلاله:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

فالذين أوتوا الرزق الوفير عليهم حق معلوم، صلة ذوي القربى، والمسافرين الفقراء المنقطعين، فمن قام بحقه، وأخرج زكاته، وهي ركن من أركان الإسلام لا يقوم إسلام المرء المانع لها، وأنفق منه باليمين والشمال، وسد خصاصة المختص، وجبر خاطر المنكسر، وذي الحاجة وذي العيال، هذا من المفلحين الناجحين يوم الامتحان الأكبر، ويحذرنا الله الربا، فلا تركن إلى الذين يروّجون له، فهو من المحرمات المغلظ في تحريمها، ولا يبارك الله في مال دخله الربا، إلاّ أن تكون فتنة للمرابي ليزداد تمادياً.

---

(١) سورة الروم: ٣٧ ـ ٤٠.

يقول علام الغيوب :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ ﴾ (١).

فأخبرنا الله جلّ وعلا أن الذين يتاجرون بالربا يصيبهم من ذلك هلع وجشع ، وكأنهم جنوا جنوناً ، يضاربون على الصفقات ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، لا يحلون حلالاً ولا يحرمون حراماً ، فالدنيا عندهم كلها دينار ودرهم ، لا يسألون من أين أتت ، ويجادلون ويقولون : البيع والربا بعضهما مثل بعض ، فيدحض الله حجتهم ويخصمهم ، ومن يخصمه الله فلا فلاح له .

ويمنُّ الله على هؤلاء المرابين بأن من اتعظ منهم وتاب فله رأس ماله ، ويتوب الله عليه ، ومن أصر على ذلك فإن الله ينتقم منه ، ويمحق ماله الذي دخله الربا ، ولكن من يتصدق يبارك له في صدقته وينميها ويكثرها حتى تبلغ الحسنة الواحدة مثل جبل أحد ، كما جاء في الحديث . ويؤكد الله في نداء للمؤمنين الذين كانوا قد تعاطوا الربا ، أو المرابين الذين في قلوبهم الإيمان ولكن الشيطان والطمع يزين لهم الربا ، فيقول عزّ وجلّ :

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۞ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(١).

فهو ـ سبحانه ـ يخاطبهم خطاب المؤمنين، والخطاب مستمر إلى يوم القيامة، فإذا آمنت أيها المسلم فاقلع عن الربا كما خاطبك الله هنا، فإذا لم تذعن لهذا النداء فاستعد لحرب الله، وحاربه إن استطعت فإنه محاربك، فإن كان من ترابيه غير قادر على رد رأس مالك فامهله تربح أجراً عظيماً، ولو عفوت ببعض مالك فهو خير لك من المال، وتذكر ذلك اليوم الذي تقف فيه بين يدي الله، فيحاسبك على الظاهر والخفي، تجده محضراً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فلا تظلم مما عملت شيئاً أبداً، إنْ خيراً تجزاه خيراً، وإن شراً تجزاه شراً، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

يحذرك الله، إذا أنعم عليك بمال وولد فاشكره وأكثر من ذكره ولا تركن إلى التمتع واللهو فتقنع بنصيب من الدنيا وتخسر الآخرة، فهذا هو الخسران المبين.

يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨١.

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

ومعنى اللهو هنا أن ينشغل الانسان بما رزقه الله من مال وولد وزوج عن عبادة الله المفروضة عليه، فالمفروضات لا يعذر فيها العبد، وخاصة الصلاة، وغالباً يطلق الخالق في القرآن كلمة (ذكر الله) على الصلاة، والذكر يشمل القرآن والتسبيح والاستغفار وجميع النوافل من صلاة وصيام، وغيرها. قال رجل للنبي ﷺ: أوصني، قال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله).

أما من يلتهي عن ذكر الله وإقام الصلاة بمتع الحياة مما أعطاه الله، فالله يؤكد أنه خسر آخرته. وهو يحذره فيقول: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾(٢). ويأمر بالإنفاق مما آتانا من رزق قبل الموت، عندها يعلم الانسان أنه كان مقصراً في حق نفسه فلم يقدم لها ما يعذرها أمام خالقها، فيتمنى لو يؤجل ليعمل صالحاً، ولو أجّل لعاد سيرته الأولى. ﴿**قتل الانسان ما أكفره**﴾(٣) ولكن الله يؤكد له أن هذا الأجل الذي كتب وهو في رحم أمه لن يؤجل مرة ثانية، وأنك ملاقٍ ربك، وناظر ما قدمت وأخرت.

---

(١) سورة المنافقون: ٩ ـ ١١.

(٢) سورة الأنفال: ٢٨.

(٣) سورة عبس: ١٧.

وخير الإنفاق الإنفاق المفروض، وهو زكاة ما أعطاك الله، ركن لا يصح اسلامك إلاّ به، وإن تفضلت بغيره على المعوزين فعند الله فضل عظيم (واتبع السيئة الحسنة تمحها) و﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾[1].

ولا تغضب ولا تتذمر إذا ما قدر عليك رزقك، فقد يكون أراد بك ربك خيراً، وعلم أن المادة ستوصلك إلى التهلكة، فأراد أن يطهرك من أدرانها، فسبح بحمد ربك واشكره، وإن نويت النية الحسنة فيما يؤتيك من مال فأكثر من الاستغفار، يرسل الله لك الرزق رخاء سحاً سهلاً. ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً* يرسل السماء عليكم مدرارا**﴾[2] فلله خزائن من الخير لا تغيض ولا تنفد. يقول جلّ وعلا:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[3].

كل ما يخطر على بالك وما لا يخطر عليه من رزق الله، من مال وولد وزوج، وغيث ونبات، وثواب وعقاب، كل ذلكم عند الله منه الخزائن الملأى، ولكن اللطيف الخبير، ينزل ما يشاء على من يشاء لحكمة هو يعلمها، لكلٍّ ما يحتاجه، ولكلٍّ ما يصلحه، فمن لم يرض بهذا التدبير الحكيم وأراد أن يحتال على قسمة الله، كأن يسعى إلى المال بالطرق غير المشروعة، أو التمتع من ملذات الحياة بغير ما قسم الله له، من زوج ومأكل ومشرب، فقد بغى وتجاوز الحدود، فعجل الله عليه جزاء هذا التجاوز، وسماه بالحد، والحد لغة: ما يفصل بين شيئين، أو ملكين، كحدود الأرض، فمن تجاوز هذا الحد أقيم عليه الحد، وهو شرعاً عقاب

---

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) سورة نوح: ١٠ ـ ١١.

(٣) سورة الحجر: ٢١.

معيَّن، جزاء ارتكاب جرم معيَّن، ففي الزنا: الجلد أو الرجم، وفي السرقة: قطع اليد. وكل الحدود مبيَّنة في كتب الفقه، بل في القرآن الكريم.

فعلى العبد الصالح الاستغناء بما قدره الله له، وطلب المزيد ـ إن أراد ـ بالتعبد والسعي للرزق بالطرق المشروعة النظيفة الواضحة سبلها، عندها يرشد العبد، أصاب أم أخطأ ما يطلب، لأنه اجتهد بطرق مشروعة طرق الحلال الطيب، وليس عليه الضمان.

والنوم آية

هذا النوم، وهو الموتة الصغرى، آية من آيات الله العظام، ألا ترى الانسان يتحدث ويسمر ويجادل ويناقش، حتى إذا داهمه سلطان النوم فإذا هو جثة لا تتحرك، مستغرق في سبات عميق، فهو ميت. وكان رسول الله ﷺ، إذا استيقظ من نومه، يقول: (الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور). يقول عزّ من قائل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

هذا موت يرسله الله لراحة الانسان من العناء، ﴿**إن الله لطيف خبير**﴾[2] ثم يرسلهم بعده ليبلغهم أجلهم الذي أجَّل لهم، ولو شاء لقبض أرواحهم وهم نائمون، فله الحمد ملء السموات وملء الأرض، إنه أهل لذلك وأكثر.

---

(١) سورة الأنعام: ٦٠.
(٢) سورة الحج: ٦٣.

ثم يذكر الرب سبحانه وتعالى، أن هذه الإماتة والإحياء ليست عبثاً، إنما هي ريثما يرجعنا إليه الرجعة النهائية، ثم يخبرنا بما كنا نعمل، وكنا لاهين غافلين، نظن أو بالأصح لا نتذكر أن كل ما نعمل محسوب علينا، في كتاب ﴿**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها**﴾(١).

والسحاب المسخّر بين السماء والأرض

انظر إلى هذه القطع من المزن، المتفرقة والمتراكمة والمدلهمّة، بين السماء والأرض، تزجيها الرياح إلى حيث يشاء الله، ثم يرسل الله أمره إليها فتهطل بالودق، فتروي الأرض، وتنبت الزرع وتدر الضرع، أليس هذا مما لا يستطيع عمله إلاّ الملك الأعلى؟

يقول منشيء السحاب:

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ** ﴾(٢).

فالسحاب عندما ينشأ يكون قزعاً متباعدة، فيرسل الله عليه الرياح فتأتيه عن يمينه وعن شماله (رأينا ذلك بالمشاهدة) فيلتئم ثم يتراكم ثم يسود حتى يدلهم النهار، فيرسله إلى من يشاء فيسقيه، فترى الناس مستبشرين برحمة الله، وله فيه تدبير، فمنه ما يهطل رذاذاً دائماً يسمونه (دِيمة) ومنه ما ينزل زخات تسيل منه الشعاب، ومنه الودق، وهو رشات كبار، ومنه البرد، وهو غالباً مخيف قد يمزق الخيام، وقد يسيّل الدم من

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.
(٢) سورة النور: ٤٣.

الانسـان، فهـو تخويـف لعبـاده وتـأديب، فـإذا زجر الـرعـد وفـرقعـت الصواعـق، وتلألأ البرق وهَّاجـاً، ارتعدت لذلـك فرائص الجبابـرة، فهو رحمة ربك وقـد يكون عـذابه، وقـد عذب بـه من كفـر في الأمم الغـابرة، فقال: ﴿**وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المُنْذَرين**﴾(١).

وفيه حياة الأرض الميتة، ونمو البهائم والأنعام.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(٢).

أي أيهم الأفضـل القـادر خـالق كـل شيء؟ أم المخلـوق الضعيـف العاجز؟ آآلهتكم؟ أمّن خلق السموات والأرض، ألا تبصرون، وتتفكرون؟ هل من آلهتكـم من يستطيع أن يخلق مـن ذلك من شيء؟ ومن أنـزل لكم المطر فأنبت لكم الحدائق الغناء من نخيل وفواكه، وعصف وريحان؟.

أإلَهٌ غير الله يفعل ذلك، بل هم في غي يعمهون. ولو حبس الله قطر السماء عن الأرض لظلـت أعناقهـم إلى السماء ووجوههـم مكفهرة شـاحبة مبلسة، ولظلـت زروعهم ومراعي أنعـامهم هشيماً تذروه الريـاح، وجف الضرع وجاع الولـد والأهل، فإذا هم يمدون أيـديهم نحو السماء، يا رب، يـا رب، فيستجيـب الكريـم فيسـوق الغيـث فـإذا وجـوههم ضـاحكـة

(١) سورة الشعراء: ١٧٣.

(٢) سورة النمل: ٦٠.

مستبشرة، وكأن لم يمسسهم هم ولا غم، سبحان الله عما يصفون. يقول سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1).

إن مذوب ذلكم السحاب بعدما رفعه فوق الناس هو الله، فيسقط ماءً عذباً زلالاً، يسقي الأرض والإنسان والدواب، وتصوروا لو أن الماء نضب من الأرض لمدة أسبوع فقط، لما بقي فوقها من دابة، ولهلك كل حي أوله الإنسان، فلله الحمد والمنة، أما الذين يدعون اليوم أنهم يسقطون المطر بمواد كيماوية، فإنهم ما عملوا شيئاً، إنما استعملوا ما مكنهم الله فيه، ثم تحروا هذا السحاب حتى مر فوق رؤوسهم فسلطوا عليه تلك المواد.

وانظر إلى آثار نعمة ربك كيف تتكاثف الغابات، ويسارع المزارعون يزرعون شتى الألوان من غذاء الناس والحيوان، وهذا يغرس النخل وآخر العنب، ومن كل ما ينفع الناس، فهل من متفكر متدبر في حكمة الله، وعطائه غير الممنوع ولا المقطوع؟!

ويكرر الله الأسئلة لترسخ في النفوس، ولتذكر الإنسان دائماً بنعم الله وآياته التي لا تعد، وكم قال الله له: ألم تر؟! ولكن الانسان كثير الغفلة،

---

(1) سورة النحل: ١٠ ـ ١١.

سرعان ما ينسى ، لهذا يتكرر السؤال لعل العبد يرعوي ، ويتذكر، يقول عزّ وجلّ :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١].

الأرض تراها يابسة مقشعرة ، لا حياة فيها ، فإذا أنزل الله الماء ﴿**اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ [٢] ولو لم يُنزِل الله الغيث ما رأيت فيها من خير، وما الخير إلاّ من عند الله .

والرياح من آيات الله الباهرات

الرياح رسل الله إلى رحمته ، تسوق السحاب إلى حيث يشاء الله ، فإذا أسقى الله ذلك البلد وارتوت الأرض ، أرسلها من قابل تجفف الأرض للسائرين ، وتجفف الشجر للسائمة ، وتجفف ثياب الناس ولحفهم ومشابّ نيرانهم ، رأينا ذلك بالمشاهدة ، وقلنا : الحمد لله رب العالمين . والرياح ـ في غير ذلك ـ ناقلة للأكسوجين اللازم للحياة ، مبيدة للجراثيم الضارة ، ولو توقف الهواء لحظة لخرج الناس إلى العراء يستنشقونه ، وفي داخل بيوتهم يستجلبونه بالمراوح والمكيفات ، انظر إلى تدبير ربك ، وقل سبحان الذي سخر لنا هذا .

يقول الحكيم المدبر:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ

---

(١) سورة الشعراء : ٧ ـ ٨ .
(٢) سورة الحج : ٥ .

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

ففي البادية تراهم يعرفون رياح المطر، ويُنْذِرُون البيوت سراعاً مستبشرين، وكأنهم ينظرون إليه ينزل، بل أنه قد يدهم بعضهم قبل أن يذرِّي بيته، فسبحان ملهم الانسان، بل ترى بعضهم يركض في الصحراء بحثاً عن أولاده الذين مع الغنم أو البهم ليساعدهم على الاكتنان عن المطر. حتى الطيور تراها إذا أحست تلك الرياح لها وصوصة تأرز إلى أعشاشها، فكل من في البادية من إنسان وحيوان وطير يعرفون هذه المبشرات، ويسمونها أسماء يعرفونها، ويعرفون أن بعضها آكد من بعض في جلب السحاب.

وانظر إلى حكمة ربك في دمج المعلومات للانسان حتى تتركز في ذهنه مجتمعة متناسقة. يقول تعالى:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٢).

فالله ـ هنا ـ يذكر الانسان بسفره في البحر، فإذا أظلم الليل وصار الإنسان بين ظلمة الليل وظلمة الماء، أبرز له من مصابيح السماء ما يعرف

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧.

(٢) سورة النمل: ٦٣ ـ ٦٤.

جهته وبه يتعرف على طريقه جوف هذا الظلام الدامس، هل غير الله يفعل ذلك.

فإذا عرف العبد هذه النعمة ذكَّره بنعمة أخرى تهمه كثيراً، ذلك أن الإنسان متلهف أبداً إلى رحمة ربه من المطر لتحيا أرضه، فيذكّره أنه هو الذي يرسل الرياح بشرى أمام المطر، وانظر إلى قوله: ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أن هذه الرحمة تأتي حتماً في أعقاب الرياح المبشرة.

ثم يعود الرب تبارك وتعالى فيسأل هذا الانسان، وهو يعلم الجواب، ولكنه سؤال إنكار على العبد العاصي، فيقول: أتجد مع الله من يفعل ذلك؟! ويقول المؤمن الموحد ربه: كلاّ يا ربنا تباركت وتعاليت. ويسأله مرة ثانية: أمع الله من يبدأ الخلق؟ أي يخلقه ابتداء من دون بذرة سابقة، ثم إذا فني يحييه مرة أخرى ليوم الحساب، ثم من يأتيكم برزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟! سبحان الله عما يشركون.

فإذا قالوا: نعم، يأتي به آلهة نعبدهم مع الله، قل لهم: هاتوا ما يثبت ذلكم (برهانكم) إن كنتم صادقين. فإن لم تأتوا به، ولن تأتوا به، فأنتم الكاذبون، ولعنة الله على الكاذبين. أتريدونها عوجا؟!. ويقول السميع العليم:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة السجدة: ٢٧ ـ ٢٩.

يقول سبحانه: الأرض الجرز، الصلبة الجرداء من النبات، لا ترعى فيها البهائم ولا يزرع فيها الانسان، أما ترون أنا نرسل السحاب إليها فتمطر، فيخرج فيها النبات النضر، تأكله الأنعام، وتأكلون منه، نعمة من الله، والله عنده خير كثير.

فيقول الذين ظلموا: أنتم تقولون يوم القيامة، ويوم الحساب، وأن الله يجمع الأولين والآخرين، متى هذا؟ متى يفتح الله عليكم بما تدعون؟ فيقول الله عز وجل: قل يا محمد إنكم إذا رأيتموه ستجأرون وتولولون، وتقولون: ﴿**هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**﴾[1] ولكن هذا الإيمان لن ينفعكم، ولن تمهلوا، بل توفَّون رقطَّكم، لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون.

(١) سورة يس: ٥٢.

٨

الآيات الدالة على نصره رسله وعباده المؤمنين ودفعه عنهم

قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾(١).

وقال جلّ وعلا: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾(٣) و﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾(٤) و﴿ولينصرن الله من ينصره﴾(٥). والآيات في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولكن العبرة بالشواهد، وأكثر هذه الشواهد دخولاً إلى قلوب الناس هي المشاهدة أو ما يرويه المشاهد أو ما هو في حكم ذلك، هذا يفهمه الناس أسرع، ويقول سيد الكائنات: (خاطبوا الناس بما يفهمون).

تأييد الله رسله بجند من السماء

قال أصدق القائلين:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة البقرة: ٢٥١.
(٣) سورة الصافات: ١٧٣.
(٤) سورة المجادلة: ٢٢.
(٥) سورة الحج: ٤٠.

فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

فتح الله على رسولـه مكة المكرمة، البيـت الحرام، وحطم الأصنام، وطهـر البيـت للطـائفين، والـركع السجـود، ودخـل النـاس في ديـن الله أفواجاً، فـاجتمع خلق ما عـرف الإسلام مثله قبل ذاك، فجيَّشَهـُم القائد النبي ﷺ لفتـح الطائف آخـر معاقـل الشرك في الحجاز آنـذاك، وجمعت قبـائل الطـائف جموعهـا وجاءوا هـاجمين على مكـة، والتقـى الجمعـان: الإسـلام والشرك. فقال قـائل مـن المسلمين حين رأى الحشـد الاسلامـي العظيم: (لن نهزم اليـوم من قلة)، وما درى أن النصر مـن عند الله، وكم من فئة قليلـة هزمت فئة كثيرة بـإذن الله. فلم تغن كثرة المسلمين فـانهزموا باديء ذي بدء، وثبت القائد الموقن بالنصر، وضاقت على المقاتلين الأرض وظنوا بالله الظنون فـولوا، والرسول يناديهم، فأنـزل الله الملائكة، وأخذت تحصد المشركين، فولوا الأدبار على قيادات متفرقة وعلى طرق متفرقة، ونصر الله نبيه والمؤمنين، وظلوا يطاردون ويقتلون ويغنمون.

فيا ناصر أول هذه الأمة انصر آخرها، فقد تداعت الأمم الكافرة على خير أمة أخرجت للناس، فإذا كل مـا هو إسلامي مستساغ الاعتداء عليه منهوب محتـل، وكل ما غيره تتنـادى له الأمم الكـافرة وتنصره حتى يـأخذ حقـه وحق جيرانـه، وما فلسطين وكشمير وأريتريـا وأذربيجان، وغيرهـا وغيرها عنا ببعيد.

---

(١) سورة التوبة: ٢٥ ـ ٢٦.

النصر مع الصبر

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[١] وإن الله مع المؤمنين، فلا نصر بلا إيمان، والإيمان الذي لا يثمر الصبر في سبيل الله، هو إيمان هش لم يبلغ الاحتساب على الله.

ها هو رب المؤمنين عندما عرف ما في قلوبهم من إيمان وصبر على الجلاد في سبيل إعلاء كلمته يقول لجنده الأكبر الملائكة الكرام البررة:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ
* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ
* وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ
بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢].

---

(١) سورة محمد: ٧.
(٢) سورة الأنفال: ١٢ ـ ١٨.

يقول نـاصر المؤمنين : يا ملائكتـي ، عاونوا عبـادي المتقين ، واقتلوا الكافريـن وأنا ظهير لكم سأقـذف الرعب والخوف فلا يصمـدون لقتال ، فاضربوا رقابهم وابتروا أيديهم ، فإنهم قد نازعوني ونازعوا رسولي ، وجحدوا آيات الله ، وإني معذبهم في الـدنيا ويوم القيامة لهم عذاب النـار. ثم يعود للمـؤمنين يرشـدهم ويـربط على قلـوبهم ويحذرهـم بأن لا يـولوا الكفـار أدبارهم منهـزمين فما يليق هذا بالمؤمـن ، وأنه سيعذب المؤمن الـذي ينهزم أمام الكفار، إلاّ أن يكون منسحباً إلى حَجَا ومأمن يستطيع منه القتال بقوة أكثـر، وإلاّ فليأذن بحـرب من الله ، وليـس غير جهنم ، فـلا ينفعه إيمانـه الرقيق الذي لم يدفعه لقتال من كفر بالله ورسوله .

ثم يقول الرب عزّ وجلّ : إن الـذي قتل هؤلاء المشركين هو الله ، وهو رماهـم وما كانـت رميتك لتبلغ ما بلغـت لولا أن الله كثفها وبـارك فيها ، فجاءت أضعافاً مضاعفة .

ولكن الله يريـد أن يبلو المؤمنين اختباراً ليعلم مـن ينصر الله ورسوله ومن ينقلـب على عقبيه . ثم يبشرنا سبحـانه ويؤكـد لنا أنه موهـن (مثبط) عزم الكفار، جاعلاً إياهم يرهبون هذه الأمة ، فهي أشد رهبة في صدورهم من الله ، ولا أدل على ذلـك مما نسمـع اليوم في تصريحاتهم أنهم لا يـريدون عداء الإسلام ، وأنه قد يحدث الضرر لمصـالحهم ويسبب لهم عدم الأمن . أرأيت هذا الإسلام المفكـك اليوم في قريب من ٤٥ دولة ودويلـة لا يربطها إلا رابطة الـدين ، ولكـن غثاء ، يُقتـل أخوهـم وهم ينظـرون فلا يحركـون ساكنـاً ، ومع هـذا الضعف والخور يخافهم الـذين لا يخافـون فيهم إلاًّ ولا ذمة ، ﴿**لأنتـم أشـد رهبـة في صـدورهـم مـن الله ، ذلـك بـأنهم قـوم لا يفقهون**﴾[1] فما بالك لو كان هذا الحشـد الهائل موحد في دولة واحدة؟ إذاً

---

(١) سورة الحشر: ١٣ . لا يفقهـون : لا يعلمون مـا أنتم عليـه من تعـاليم الله والقتـال في سبيله ، =

لكانت كبرى دول العالم، وما ذلك على الله بعزيز.

وقـد يجمـع الله الشتيتين بعـدمـا
يظنـان كـل الظـن ألاّ تـلاقيـا[1]

إن الله قادر أن يوحد هذه الأمة على أيـدي المؤمنين الذين يرون إقامة شرع الله في أرضه، والحكم بما أنزل. ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[2]﴿**ومن لمن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾[3].

ويوم بدر

معركـة بدر أول فتـح في الإسلام، جعلـه الله بشرى للمؤمنين ونـذير شؤم على المشركين، كانت القوى غير متكافية لا عدداً ولا تسليحاً، ولكن الله نصر عبـده، وأنـزل الجنـد الأكبر فضرب أعنـاق المشركين وقتـل عتـاة مشركي مكة، فكانت سابقة حربية اخترقت الحسابات والتكهنات، فهزم الجمع الأكبر، وانتصر جند الله. يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا

= وتحكيم شرعه في عبيده.

(1) ينسب لمجنون بني عامر.

(2) سورة المائدة: ٤٤.

(3) سورة المائدة: ٤٧.

﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (١).

كان المسلمون ببدر حسب أقوال المؤرخين (٣٣٠) رجلاً فقط، بينما كان كفار قريش وأحلافهم لا يقلون عن (١٠٠٠) رجل، فيهم صناديد قريش المتمرسين في القتال، ومعهم من الخيل والسيوف ما ليس مع المسلمين، وكل العالم من حولهم مؤيد مشايع لهم، والمسلمون جزيرة صغيرة في محيط لجب لا تدرك حدوده، ومع هذا نصرهم الله لأنهم نصروه، فهم وحَّدوه، والناس به مشركون، وصلوا له، والناس كافرون، وسبحوه وحمدوه وكبروه، دون كل العالم، وكان ذلك إخلاصاً لا عادة وتقليداً، وكان ابتداء لا اتباعاً، فلما أطاعوا الله ورسوله نصرهم، وأنتم اليوم إن تطيعوا الله ورسوله، وترفضوا نظم الغرب ومبادئه، وما ينفثون في قلوبكم وعقول أبنائكم من إلحاد وزيف ومحاولة لمحو هذه العقيدة السمحة المتسامحة ينصركم الله ويوحد قلوبكم ويؤلف بينها، وإنكم إن بقيتم تركنون إليهم فلن تفلحوا، ولن تزدادوا إلاّ ذلاً والتصاقاً بأعدائكم الذين يكشرون فتحسبون أنهم يبتسمون.

إذا رأيت نيوب اللَّيْث بارزةً
فلا تظننَّ أن اللَّيْث يبتسمُ (٢)

فاتقوا الله، وما بعد هذا النصر برهان. ثم يعقب القدير العليم على قول رسول الله ﷺ لأصحابه: ألا يكفيكم أن يرسل الله لكم ثلاثة آلاف من الملائكة يقاتلون معكم، فيؤكد قول نبيه، فيقول: بلى، إذا صبرتم لعدوكم يرسلهم فوراً، ويرسل خمسة آلاف لا ثلاثة، مدججين بأسلحة

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦.
(٢) المتنبي: أمثال الشعر العربي.

مسوَّمة عنـد الله للكافرين، بشرى لكـم وطمأنة لنفوسكـم، وليس النصر بقتالكم، ولكـن الله ينصر عباده المؤمنين، إنه عزيز حكيـم، ينصر بعزته من يشاء، ويجعل ذلك بحكمته كيـف يشاء، فقد يهزم المؤمنين عقاباً على ما فعلوا في جنب الله، أو لزهوهم، أو لشك في نفوسهم، ولكنه يديل لهم آخر الأمر إن آمنـوا وصبروا وجاهدوا بأمـوالهم وأنفسهم، ولينصرن الله من ينصره. ويؤكـد العزيز الجبـار أن من يخرج مـن بيته لقتال الكفـار فإن الله ناصره، يقول عزّ وجلّ:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۞ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۞ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

يقول نـاصر الموحدين وضـامن إحـدى الحسنيين للمجاهديـن: ما أخرجـك ربك من بيتـك غازياً إلاّ بالحق، وإن كـره بعض من معـك من

---

(١) سورة الأنفال: ٥ ـ ١٠.

المؤمنين هذا الخروج، يراجعونك يريدون أن يصدوك عما ندبك الله له، وكأنهم ينظرون إلى مصارعهم عند اللقاء، وقد ظهر الحق لهم ولكنهم لا يريدون قتالاً، ويريدون النصر بلا عمل، ويعلمون أن الله وعدكم النصر أو الشهادة، وأكْرِم بإحداهما كسباً للمؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم يوم القيامة، يوم يأتي الشهيد يشخب دمه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك[1].

ولكنكم تريدون (غير ذات الشوكة) نصراً سهلاً وأنتم قاعدون في بيوتكم، في ظل ظليل وماء زلال، وحلائل حلال. ولكن هذا ليس من طبائع الأشياء، فلكل سبب مسبب، وعمل نتيجة، والله يضرب الكفار بالمؤمنين، وينصر المؤمنين ليسروا بنتائج أعمالهم، فالحق من عند الله، والجزاء واقع عليه لا محالة، وهو مدمر الكافرين ضمناً، وأن الباطل زاهق ممحوق، ولو ساء ذلك من أسرف وأجرم وفسق، وإن للباطل صولة، ولا بد للحق من جولة، ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[2]. والمؤمنون إذا استغاثوا يمدهم بالملائكة مقاتلين، وهل ينتصر من يقاتله من الملائكة جند الله؟ وهل ينهزم من يقاتل معه الملائكة جند الله؟ كلاّ، وألف كلاّ، وإن الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر ويوم حنين لا زالوا عند ربهم سينصر بهم المؤمنين إذا ثبت إيمانهم، وأخلصوا أعمالهم لله وحده، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، لا قومية ولا وطنية، إنما جهاد في سبيل الله وإعلاء لكلمة (لا إلـه إلاّ الله)، وإن الرياح التي زعزعت مساكن الأحزاب وكفّأت قدورهم، وقلّعت خيامهم، فأسْرتهم ليلاً لا يلوون على شيء، إن هذه الرياح لا زالت تهب في الشرق والغرب،

---

(١) حديث صحيح.

(٢) سورة يوسف: ٢١.

طائعة ربها تجري حيث يرسلها، وصوت صفيرها: لبيك ربنا لبيك، طاعة وشكراً.

ثم يصدر الله أمره بعد أن مرّن المؤمنين على مقارعة أعدائهم، فيقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ ﴾(١).

فيجأر المكيون بالشكوى فيقولون: قطعت عنا الميرة، فإن القمح والسمن والإقط، يجلّبه إلينا الأعراب الذين لا زالوا مشركين، فإذا الله يسمعهم فيقول لهم:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وكأن المولى جلّ وعلا يقول: يا عباد الله! أتدخلون في دين الله أفواجاً وتخافون أن يميتكم جوعاً؟ أيميتكم جوعاً، وأنتم مؤمنون، من كان يرزقكم وأنتم تشركون؟! إن هذه ليست من شيم البشر، فما بالكم برب البشر، ثم ما لبثوا أن رأوا كل من حولهم يأتيهم بالمؤن وهو مؤمن، فجاء باثنتين لا واحدة، المؤن والإيمان. فتبارك علام الغيوب. ولا زالت أبواب السماء تفتح على أهل الإيمان حتى فتحت فارس والشام ومصر، فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلّهم، فاستبدلوا الخدور بالقصور، والشاة والبعير بالأنهار والحقول.

أبعد هذا يماري مؤمن، فتقول له هؤلاء أعداء الله يغدقون على عدوك

---

(١) سورة التوبة: ٢٨.

الثروة بلا حساب، وعدوك يقتل أهلك وقومك في المسجد المقدس أمام سمع العالم كله، ومن هو العالم (إنه عالم الكفر) أما الإسلام اليتيم فحتى أهله تململوا، وصاروا حرباً عليه. يقتلون العلماء، ويكمون أفواه الصلحاء، واليهود يبتلعون ديارهم قطعة قطعة، فلا ترى إلاّ حزن المؤمنين، والرقص والغناء في قصور المرفهين، تقول له: قاطعهم، أرهم منك غلظة عسى أن يتنبهوا عسى أن يرعووا، فيقول: إذاً أموت جوعاً. بئس ما ظننت بربك. أتظن أن يحرمك ربك وأنت المؤمن المتوكل عليه؟ أم تظن أن يهزمك الجمع الكافر بسلاحه الفتاك وأنت المسلح بجواهر الإيمان؟ كلاّ وألف كلاّ، يا مؤمن! أحسن ظنك بالله، واجعل حركاتك وسكناتك في سبيل الله، ولن يخلف الله وعده، فقد صدق لنبيك وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. فكن على نهج نبيك تنل ما نال، ويعطيك ربك ما أعطاه.

شر الدواب

ثم تأتي صفة الكافرين من السماء السابعة، والتعليمات بما يصلح أن يعاملوا به، فهم قوم لا خلاق لهم، لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، والكفر ملة واحدة، وكل الكافرين والمشركين ما اتفقوا على شيء مثلما اتفقوا على محاربة الإسلام، غير أن كفار اليوم يضيفون إلى كفرهم نفاقاً، فهم يقولون لك: إنه لا عداء بيننا وبين الإسلام، يستميلون بذلك ذوي التفكير السقيم، والأهواء الملتوية، علامة صدقهم أن قيامتهم تقوم إذا قتل كافر واحد، في بلد من بلاد العالم حتى لو كان هذا الكافر بوذياً، ولكن ريحهم لا تهب عندما يقتل العشرات من المسلمين أو تهدم المنازل، أو تدمر المساجد. ولو وقف الأمر عند هذا لكان يكفيهم كشفاً وخزياً، ولكن الأمر يكون عكساً عندما تغير مجموعة مجاهدين على أطراف العدو

الذي قتل آباءهم وفضح نساءهم وشردهم، فإذا إعلام العالم (غير الحر) تتنادى: الارهابيون فعلوا، المتطرفون المسلمون قتلوا، الأصوليون قالوا! هكذا أقتلك فاسكت، أو أنت عدو العالم الحر مزعزع الاستقرار العالمي، غير قانع ولا راض باحتلال أرضك وضيم عشيرتك؟! وهذا هو الشغب والتطرف.

يقول من يسميهم شر الدواب وهو خلقهم وأعلم بأحوالهم:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۞ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾(١).

إن الله قسم بني آدم إلى مؤمن وكافر، ولا ثالث لهما، وامتدح المؤمنين فقال جلّ جلاله: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾(٢) أفضل الأمم وأكثرها نفعاً وأقربها إلى الله، ولكن بشرط: ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾(٢) فأنتم إذاً أفضل الأمم إذا توفرت فيكم هذه الشروط، ومن لم تتوفر فيه هذه الشروط فليس من أهل هذه الآية. ثم يصف الكافرين بأنهم شر من دبَّ على هذه البسيطة، الذين لا إيمان لهم، والذين ينقضون العهود بعد إبرامها، وكم عهد رأيناه أمسى سواداً على بياض، هؤلاء الذين يظهرون السلم ويبطنون كل سوء، يقول الله لنبيه، والأمر للمؤمنين إلى أن تقوم

---

(١) سورة الأنفال: ٥٥ـ٥٨.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

الساعة : إذا أمكنك الله منهم في الحرب فشرد بهم من كان خلفهم، ادخل في قلوب الغائبين منهم الرعب بما تنزله بمن أمكنك الله منهم، وأرهبهم إرهاباً وقطع قلوبهم تقطيعاً، ولا يأخذك الخجل يا مؤمن عندما تسمع أبواق الكفار ومن لف لفهم يقولون : الارهابيون، قطاع الطرق القتلة، إنما هو تحطيم لإرادتك مستغلين جهلك بدينك الذي يقول فيه ربك :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١).

فإرهاب عدونا وعدو الله ورسوله واجب بنص كتابنا، فكيف عاد علينا سبَّة بعد أن كان مفروضاً؟! الجواب : إننا أصبحنا نأخذ تشريعنا من العدو الذي يدخل الشك على كل ما ينفعنا ويضره، ذلك أنهم ﴿**لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق**﴾ (٢).

فخيرنا شر لهم، ودفاعنا عن بلادنا يحرمهم منها ومن خيراتها، فلا بد من تعميتنا ومحاربتنا ذهنياً وعقلياً أولاً ثم يسهل عليهم بعد تشربنا كل ما يبثون القضاء على عقيدتنا، ولكن هل يستطيعون؟! إسمع الخبير العليم : ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ (٣).

﴿**ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ (٤).

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٢) سورة التوبة : ٢٩ .
(٣) سورة البقرة : ٢١٧ .
(٤) سورة التوبة : ٣٢ .

ويأتي من الهادي الحكيم الإذن لنبيه قائلاً :

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ (١) ﴾ (٢).

وهذا الأمر يظل سارياً ما احتـاج إليه المسلمون ، ولكنه سِلْم بلا ذلة ولا غمـض حق ، سلـم نسلـم به مـن شرورهـم ، ويسلمـون من عقـاب المسلمين .

ولكن لا يكون سلم خديعة أو يتقـوون به إلى وقت مناسب أو حشد حلف لـوقت وزمن مناسبين . ويطمئـن الله رسوله والمؤمنين معـه وبعده ، قائلاً :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

هذا لما علم الله منهم الميل إلى الخديعـة ، وما النصر إلاّ من عند الله ، ليس بكثرة الجيوش ، فما تقدم من وقائع بدر وحنين ، وما يوم الأحزاب عنا ببعيد حين جمع كفـار قريش تنـاصرهم قبـائل العرب ، وتسانـدهم يهود ، حتى زُلْزِل المؤمنون ، فجاء نصر الله سريعاً ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾ (٤).

وما أشبه الليلة بالبارحـة ، فهذه يهود اليوم يناصرها الشرق والغرب ، ويهادنها منافقو العـرب والمسلمين ، ويخافها بنو يعرب خيفتهـم الله ـ نعوذ

---

(١) قال في الناسـخ والمنسوخ : إنها منسوخة بآيـة السيف ، والحق كذلك ، إلاّ أنه في حـالة ضعف المسلمين فلا بأس بالمهادنة ريثما تستعد الأمة للقتال .

(٢) سورة الأنفال : ٦١ .

(٣) سورة الأنفال : ٦٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٤ .

بالله ـ وكل يقول (يا الله السلامة) وأيـن السلامة؟! وهل تظنون يا عرب بل يا مسلمـون أن لمطامع إسرائيل حـدوداً؟! كلاّ، وألف كلاّ. فلقـد وقعت بيـدي خريطـة (مخطط) قبـل عشرين سنـة تقريبـاً، نشرتها مجلّة الخواطـر اللبنانيـة ـ إن أسعفتنـي الذاكـرة ـ تبين احتـلال إسرائيل بـلاد العرب على مراحل، حتى يكون آخرها (عدن).

ومنذ ذلك اليوم وأنـا أشعر بالفزع، وها هي بـوادر التنفيذ قد بدأت بتهجير يهود السوفييت، والعرب والمسلمون سادرون في غيهم، لاهون عن أرضهم ومقدساتهم، ومواطـن آبائهم وأجدادهـم، ﴿**ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشدا**﴾[1].

خصائص من آيات الله جعلها لرسله دون غيرهم

ويـأمر الله نبيـه إبراهيـم وابنه أبـا العـرب ببناء بيتـه المعظم الكعبـة المشرفة، فلم يجدا ما يرقى عليه معلم البناء، إبراهيم عليه السلام، فيسخر الله له الحجر، يرتفع كل ما ارتفع البناء، وكأنه سلم آلي، بل هو أعز وأَطْهَر وأظهر، فلما انتهى من البناء أمره ربه أن ينادي في الناس بالحج[2]، فارتفع به هذا الحجـر حتى علا فوق جبال مكـة، حتى إذا فرغ إبراهيـم من ندائه عاد كما كان وقد أثـرت فيه قدما إبراهيم عليه السـلام، ويكرم الله إبراهيم بأن يجعل ذكره خـالداً بهذا الحجر الذي سماه الله مقام إبراهيـم، فقال جلّ جلاله:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: ١٧.

(٢) راجع إن شئت: فضائل مكة، للمؤلف.

(٣) سورة البقرة: ١٢٥.

الآيـات استوفيـت الحديـث عنها في (فضـائل مكـة وحـرمة البيـت الحرام).

فجعل النـاس منذ نزلت هـذه الآيات الكريمات يـزدحمون على مقام أبيهـم وسيدهـم إبراهيـم يصلـون عنده. وآيـة أخـرى باهـرة ظاهـرة لأبي الأنبياء، ألا وهي امتحانه بذبح ابنه إسماعيل، إذ يقول:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وهكذا يذعن إبراهيم إلى أمر ربه بالرؤيا، ويقدم على ذبح ابنه وزين روحه، إرضـاء للعزيـز الجبار، بينما نجد مـن بين المسلمين من لا يـرضى بكسرة خبز يعطيهـا مسكيناً، وأعجب إن عجبـت بأمر إسماعيـل الصبي الصغير يقدم روحـه إرضاء لربه وطـاعة لأبيه، إنه الإيمان، (ذريـة بعضها من بعض) ورضى مـن يستحق الرضا بهذه الطاعة العميـاء ـ أستغفر الله ـ بل المبصرة، ذات البصيرة النيرة، يرضى الحكيم الـرحيم فيرسل في مثل لمح البصر كبشـاً تحل رقبته محل رقبـة المؤمن الصغير، ويقـال لإبـراهيم: لقـد بلونـاك ـ أي امتحنـاك ـ امتحـاناً ما بعـده إمتحان، فـاذبح الكبـش فداء

(١) سورة الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٧.

لإسماعيل، فإن لإسماعيل رسالة غير هـذا، وهكذا كان من إسماعيل سيد الأولين والآخـريـن.

وذو النون يونس، إن له خبراً لا يقـل عن خبر إسماعيل، آية من الله لمن يؤمن.

أرسل الله يـونس بن مَتَّى نبيـاً رسولاً إلى أهل نينـوى بشمال العراق، وهي مدينة تأريخية، وكان يزيد سكانها عن مائة ألف، فلم يستجيبوا لنبي الله يـونـس، ولم يجد صبراً فقذف بنفسـه في نهر دجلـة[١]، فابتلعه الحوت فنـادى في الظلمات قـائلاً: ﴿**لا إلَـه إلاّ أنـت سبحـانـك إني كنـت مـن الظالمين**﴾[٢] فنجَّاه الله، ومـا دعا داع بـدعوتـه هذه إلاّ نَجّـاه الله سبحانـه وتعالى. يقول منجي المؤمنين:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٣].

هرب في سفينته غضبـاً على قومه، قلة صبر منه، فعـاقبه الله بعد أن قذف بنفسه في اليم وكأنه على موعـد مع حوت عظيم، ومن عادة الحيتان الكبيرة أن تلم على السفن وتظل تطوف بها لتأكـل ما يسقط منها، وهكذا

---

(١) دقة هذا الخبر فيها أقوال لسنا بصددها.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٣) سورة الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨.

وجد ذو النون (والنون نوع من الحيتان) نفسه في ظلمات البحر وبطن الحوت، ونادى بالنداء الذي قدمناه، فأمر الله الحوت أن يقذفه في البر ﴿**العراء**﴾ وكان سقيماً فأنبت الله عليه شجرة القرع تظلله ﴿**من يقطين**﴾ حتى تماثل للشفاء فعاد إلى قومه وأخبرهم بالقصة فإذا هم يؤمنون، لأنهم لم يروا ولم يسمعوا أن إنساناً أكله الحوت ثم جاء يمشي غير يونس، فلا بد أن الذي أنجاه على كل شيء قدير.

والقبلة، حجبها الله حتى أعطاها محمداً

والقبلة بيت الله الحرام، ومهوى أفئدة المؤمنين، لم يعطها الله أحداً قبل محمد ﷺ، فقد كانت القبلة بيت المقدس حتى هاجر رسول الله إلى المدينة، ثم حولت إلى الكعبة في السنة الثانية هـ.

يقول تعالى جدُّه:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١).

وهكذا فالله يرى تلفتنا حيث نرغب، وهو الذي يقلب القلوب

(١) سورة البقرة: ١٤٤ ـ ١٤٥.

فيحكم الإيمان لمن شاء ويكرم عباده المخلصين، فحقق رغبة حبيبه بقبلة يتعشقها ولم يستقبلها قبله أحد، فجعلها فرقاناً بينه وبين الكافرين إلى يوم يبعثون، هذه تكرمة لنبينا ولنا من بعده، وإشارة واضحة بل أمر واجب الطاعة باستقلالنا عن كل الملل الباطلة، لا نتبع قبلتهم ولا نأخذ بمبادئهم ولا بآرائهم، فلنا كتابنا ولنا نبينا ولنا قبلتنا، وملتنا تتعارض بل تستفرغ ملتهم، فما في دينهم من خير بلغ إلينا ضمن كتاب ورسالة ناسختين لجميع الأديان قبلها، ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾[1] ثم إن الله يحذرنا من الركون إليهم ـ الخطاب للنبي والحكم لعموم أهل الملة ـ ومن الطمع في اتباعهم سبيل الحق، إلاّ أن يكون ذلك فردياً، أي أفراداً يدخلون في دين الله يتتابعون كما يحدث الآن في الغرب، إنما التحذير من الأمة ذات الكيان الواحد، فإذا نحن اتبعنا أهواءهم ـ كما يعمل بعض المسلمين اليوم ـ فإننا لظالمون عاصون الله ورسوله، كيف وإن يظهروا علينا لم يرقبوا فينا إلاّ ولا ذمة، والله غالب على أمره، و(ما غزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا)[2].

وعيسى وما أتاه الله من الحكمة، آية باهرة

وامتحن الله بني إسرائيل بعيسى وأمه، فافتتنوا فقالوا ابن الله، وزادهم فتنة عندما خيل إليهم أنه يحيي ويميت، وما كان ذلك إلاّ بأمر ربه، وكرامة منه لعبد صالح ابن أمة صالحة، ولم يقل عيسى أنه إلّه، ولم يدعهم إلى عبادته، وبعد أن يقص الله علينا قصة مريم وحملها ووضعها، يخلص بنا إلى قوله تعالى:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥.
(٢) حديث شريف.

مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۞ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾[1].

وهكذا خلق الله عيسى كما خلق آدم، إن الله يخلق ما يشاء ويختار، وتأتي معجزة المعجزات أن ينطق الله عيسى وهو في المهد، ولما يمض على ولادته إلا ساعات معدودة، ويخبر بني إسرائيل أنه أصبح نبياً رسولاً فور ولادته! سبحان ربنا رب العزة العزيز الحكيم.

وهذا النبي الرضيع يخلق من التراب طيراً، ولكنه يقول لهم: إن هذا بإذن الله، وإني أعلم ما غيبتم عني في بيوتكم، ولكنه بإذن الله، ومع هذا افتتنوا به وخرج فيهم الثالوثيون، فزجرهم الله فقال: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا**﴾[2]. وقال: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**﴾[3].

ولكن الظالمين لم ينتهوا، وظلوا يشركون مع الله جلّ وعلا: مريم وابنها عليهما السلام، وعقيدة المسلمين الاعتراف بصلاح مريم وبراءتها، ونبوة عيسى وطهره، وأنه بشر عبد لله.

---

(١) سورة آل عمران: ٤٧ ـ ٥٠.

(٢) سورة النساء: ١٧١.

(٣) سورة المائدة: ٧٣.

وها هو رب العباد يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

من هذه الآيـات المحكمات نعلم علم اليقين أن عيسى عليـه السلام ما قال لبني إسرائيل إلاّ أنه نبي الله ورسـوله ، كما أمره الله ، ومنها أنه رفض دعواهم أنه ابـن الله ، وكان شاهداً على ذلك مدى حياتـه ، واستشهد بربه على ما أحدثوا بعد موته .

ونخلـص من هـذا إلى أن الثـالوث شرك بـالله ، وأن أهـل هذه الملـة مشركون ، وأن مثلهم مثل الذين قالوا : ﴿**عُزَير بن الله**﴾[2] فهم مشركون ، وأن قوله تعالى : ﴿**إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾[3] ينطبـق على الجميع كما ينطبـق على الـوثنيين والمجوس والبـوذيين والبراهما ، وكل الكافرين .

---

(١) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) سورة التوبة : ٣٠ .

(٣) سورة التوبة : ٢٨ .

وفيما أعطى الله دواد وابنه سليمان، آيات للمتفكرين

إذ فتح الله لهما بصناعات ما كانت معروفة، وسخر لهما الريح والجن، وأعطاهما ملكاً لم يحدث من ذي قبل.

يقول رب القدرة:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

إن هذا الملك سر من أسرار الوهاب، ولِمَ لم يعطه غير سليمان؟ لا شك أنه من باب توزيع الحكمة والمكافأة لأوليائه الصالحين، فلإبراهيم النجاة من النار، وصعود المقام، ولموسى نطق الجبل وحياة الحوت وتفجير العيون، ولمحمد الصعود إلى السماء، وذكر لم تعد تغرب عنه الشمس يتعالى من اليابان إلى غرب أمريكا، (الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله). وقد امتن الله عليه حين قال: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾[2]. ﴿**وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير**﴾[3]، وتقدمت الآية قبلاً. فهذه الريح يتحكم فيها سليمان، عليه السلام، بأمر ربه فيرسلها حيث يشاء، وهؤلاء الجن يسخرهم له ليعمل ما يشاء، ومن يعصى يعذبه الله عذابا نكراً. إنها آيات الله التي نقف حيالها بذهن محدود وعقل مكدود، ثم نعود فنقول: آمنا به، لا مبدل لما أراد ولا راد لما قدّر، ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

---

(١) سورة سبأ: ١٢.

(٢) سورة الانشراح: ٤.

(٣) سورة الأنبياء: ٧٩.

والإسراء بسيد المرسلين آية كبرى

يقول العزيز الحكيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

لقد شهد الله أنه أسرى بعبده محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي سيد الأولين والآخرين، أسرى به من مكة إلى بيت المقدس، حيث رأى من آيات ربه أعجبها، ثم عرج به إلى السماوات واحدة بعد الأخرى وكالم كبار الملائكة، وأولي العزم من الرسل، وفرضت عليه هناك الصلوات الخمس، وعاد يخبر الناس، فكذب الذين كفروا من أهل مكة، وصدّق المؤمنون وزادهم إيماناً وتثبيتاً، ونحن أيضاً نصدق به ونؤمن، نصدق من لا ينطق عن الهوى، ونصدق ما أنزل الله عليه، يقول من أسرى بعبده:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ

---

(١) سورة الإسراء: ١.

سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[1].

فأقسم الله بالنجم، ولله أن يقسم بما شاء مما خلق، أقسم أن محمداً ﴿**صاحبكم**﴾ لم يضل ولم يغو وما كذب علينا، إنما نقل إلينا الوحي وهو الصادق الأمين، وانه أدى رسالة ربه كاملة كما بلّغت. وقوله: ﴿**والنجم**﴾، قيل هي الزهرة، وقيل كل نجم إذا غرب، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، ولا يجوز لعبد ذلك.

﴿**شديد القوى**﴾ : جبريل عليه السلام: **ذو مرة**: ذو قوة. **الأفق الأعلى**: أعالي الكون. **قاب قوسين**: أي مسافة ما بين القوس ووتره مرتين. **تمارونه**: تحاجونه فيما هو أعرف به. ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾. أي رأى جبريل مرة أخرى ليلة الإسراء، ﴿**عند سدرة المنتهى**﴾، وهي ـ فيما قيل ـ تحت العرش.

وكان إسراء الله بعبده أحد ثلاثة فتوح أعطاها الله إياه لإعلاء كلمته: أولها الإسراء، وثانيها الهجرة، نصر في ثوب هزيمة، وثالثة هي فتح مكة، ثم دخل الناس في دين الله أفواجاً، وهذا مما كرم الله به نبيه وأظهره الله به على المعاندين الشانئين.

ولأهل العلم في الإسراء أقوال قد تختلف على تفسير النصوص التي أظهرُها ما تقدم من آيات، غير أن الآكد والذي يستنتج من القرآن والأحاديث النبوية ووصف الطريق وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس، ووصف السماوات والأحداث التي رآها، كل ذلك يدل على أن الإسراء كان حقيقة لا جدال فيها، وأنه إسراء بالروح والجسد، وأنه ﷺ كان يقظاً ناظراً سامعاً.

---

(١) سورة النجم: ١ ـ ١٤.

وذهاب بني إسرائيل حق، على المؤمن أن يصدق به

يخبر الله تعالى أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، ثم ليعلون، ويطغون حتى يكون شأنهم عظيماً وخطرهم كبيراً، ثم يأتي انتقام الله منهم، فيدمرون ويهزمون، وتساء وجوههم. . . كما أسيئت من قبل هذا واستبيحت ديارهم وقتلت ذراريهم وشردوا في بقاع الأرض. يقول مهلك الطغاة:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾(١).

أي أن الله جلّ جلاله أخبر بني إسرائيل فيما أنزل عليهم من كتاب أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، مرة بعد مرة، وأنهم سيتكبرون ويتجبرون في الأرض ويتعالون على من فيها، فإذا أراد الله إنهاء الأولى أي الزمرة منهم الأولى، في فسادهم الأول، أرسل عليهم أشد منهم قوة وبأساً، فعاثوا في أرضهم، وتجولوا فيها محتلين مدمرين ناهبين، وذلك جزاء من اعتدى على

---

(١) سورة الإسراء: ٤ ـ ٧.

عباد الله، وظلم الضعفاء والمغلوبين الذين لا قوة لهم، ولكن الله ناصرهم، وهذا وعد من الله غير مكذوب ولا ريبة فيه، ولما لم ترعو يهود، حق عليهم هذا الوعد ونفذ الوعيد، فسلط عليهم بختنصر ملك العراق، وأغار على بلادهم ودمّر ديارهم وأهلك الحرث والنسل، وأسر مقاتليهم وذهب بهم إلى بلاده، وجعل لهم سمة تميزهم عن بقية السكان، إهانة لهم وتعريفاً بهم بين الناس، فلا يراهم أحد إلاّ عرفهم بهذه السمة[1] وتشتّت اليهود في شتى بقاع الدنيا، نزلاء مجاورين أذلاّء لا حول لهم ولا طول، آلاف السنين.

الكرة

ثم جاءت الكرة التي وعد الله بها ـ والله أصدق القائلين ـ فجاءت يهود بقضها وقضيضها وأموالها التي كسبتها بحيل إبان نزولها في تلك الشعوب، جاؤوا بذراريهم ونسائهم فوجاً بعد فوج واختاروا عصراً هو على العرب والمسلمين من أنحس العصور، حين استباحت أمم الكفر ديارهم، وهجّنت أبناء النابهين فيهم، فدرّستهم مبادئها وغسلت عقولهم، فتمرسوا بسياسات أعدائهم وأحلوا أنظمتهم الوضعية محل نظام الله المحكم، وشرع البشر محل شرع الله، وقسمت تلك الأمم بلاد الإسلام إلى دويلات تجلب الويلات، وحددت حدوداً جعلت المسلم في بلاد الإسلام الأخرى أجنبياً، لا فرق بينه وبين أوروبيّ أو أمريكي.

في هذه الحقبة التعسة التي جعلت كل دويلة من دويلات الإسلام كل همها حفظ حدودها من جيرانها إخوة الدين والرسالة والكتاب، في هذه الحقبة بالذات دفعت أمم البغي بهذا المسخ المسمى دولة إسرائيل،

---

(١) كانت هذه السمة: ترك شعر الصا بريتدلى على الخد، وهو ما يتخذه اليوم كثير من الناس تفنناً وتزيناً!

دفعت بـه إلى (خُصْمِ)[1] الأمـة، طعنـة في الخاصرة نجلاء مـذهلـة، ثـم أخذت هذه الطعنـة تتَقيح حتى سممت كل الجسم الإسـلامي، وعكرت أجواءَهُ، ونافرت بين الأمة الواحدة، فصار كل من يريد أن يثب إلى الحكم يثب بـاسم (القضـاء على إسرائيل) ولكنه أقـل وأذل من أن يعمـل مثقال (حبـة من خـردل) وكل مـن يريـد أن يقلل مـن شعبية خصمـه أو يريـد التغلب عليـه إعلاميـاً فإن قـالبـاً مصنـوعـاً جـاهزاً، هـو (إن فلانـاً عميل لإسرائيل، إن فلاناً يتفاوض مع إسرائيـل) إلى آخر المنادع الخائبة، وأخيب منها هذه الشعوب التي تستمع القول فتتبع أقبحه.

وكانت كرة بني إسرائيل كما وعد الله أصـدق الواعدين، جاءوا أكثر أموالاً، وأكثـر بنين، وأكثـر نفيراً، وبغوا وتجبروا، وظلمـوا، فبقروا بطـون الحوامل، وكسروا أعظـم الشباب، وسجنوا وجلدوا شيـوخاً وعلماء، وأي نفير لبني إسرائيـل أكثر مـن أنهم يغيرون بطائراتهم فتحـط في مطار عـربي ويـدخلـون المدينـة، ويـأخـذون زعماء الفلسطينيين، ويـذهبـون بهم إلى إسرائيل، وأيـة غطرسـة وبطش مـن أن تقوم طـائرات إسرائيل فتضرب في تونـس قيادة الفلسطينيين وتعـود إلى قواعـدها لم يعترضهـا معترض، وأمام سمع العالم وبصره، وأيـة قوة أقوى من أن تضرب في بغـداد وتعود لم تطلق عليها طلقة.

بل وأي ظلم منها ومـن أعوانها وأية إهانة للعدالـة وحقوق الناس أن تمتلك إسرائيـل القنابـل الذريـة وتَمْنَع هي ومـن يحميها أيـة دولة إسـلامية (خاصة) أن تمتلك هذه القوة! فالقوة للغرب وإسرائيل، وغيرهما، لا!

---

(١) خُصْم كل حي: ما تحت الضلوع إلى موضع الكلية.

أين إحسان يهود؟!

ثـم ينبه الله بنـي إسرائيل قـائلاً ــ بعد هـذه الكرة ــ ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكـم وإن أسأتـم فلها**﴾[1] ولم يعتبر اليهـود مما حـدث في الأولى، فلم يحسنـوا في الثانية، وبلـغ ظلمهم وظلم مـن يساندهـم مبلغاً ﴿**تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشـق الأرض وتخر الجبال هدّاً**﴾[2] يساندها في ذلك قوى الشيطـان العظمى من أمم الغرب والشرق، فإنـه قد يتثاءب هذا العالم المريض أو المخدر فيغضب مما تفعله الغولة فيصدر قراراً بشجب الأعمال العدوانيـة الإسرائيلية، فإذا (الفيتـو) منتصباً مشمخراً كـاشمخرار اليمامة، وإذا إسرائيـل الباغيـة العاتية الظـالمة المعتديـة، في حكم البريء الذي يتآمر عليـه العرب، بل ربما ألبست ثوب المظلوم الـذي يقف العرب ضده فلا يستطيـع أن يحقق دولته الحرة (من النيـل إلى الفرات). إن الأمم التي زرعـت اسرائيل لا تستغلي شيئاً في سبيـل تثبيت إسرائيل وتـوسعها، ولن تسترخص شيئاً مهما رخص يؤل إلينـا بشيء من الرفعة والعزة ولا أقول النصر، فمتى نفهم ذلك؟!

الوعد الحق

﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوء وجـوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً**﴾[3].

وهذه البشائر تلوح في الأفق، إن الصحـوة الإسلامية التي أصبحت مداً وسيلاً جارفاً لا ترضى إلاّ بتحقيق وعد الله، وإن الله قد أعذر من هذه الطغمة الفاسـدة، وإنها كلما زادت طغياناً وتنكيلاً كـان ذلك مبشراً بقرب

---

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) سورة مريم: ٩٠.

(٣) سورة الإسراء: ٧.

الوعد، ولن يصلح آخر هذه الأمة الاّ بما صلح به أولها، ولن يحقق وعد الله في دولة الشيطان الاّ قوم (لا إلّه الاّ الله) به يستفتحون وبه يجولون، وبه تتم الصالحات والفتح المبين.

ويقول المنهزمون المهزومون في داخلهم القانطون المطأطئون رؤوسهم ذلاً وخزياً: كيف لنا بهذه القوة الضاربة الرادعة؟! وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾(1).

أسمعت أيها المؤمن قول الله المخبر الخبر اليقين؟! كان يهود المدينة أعظم من في جزيرة العرب حصوناً وأكثرهم مالاً وأوجدهم سلاحاً، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، حتى أنهم شرعوا يهدمون بيوتهم ليصطحبوا ما يمكن اصطحابه منها، فأمست ديارهم خراباً مقفرة، وسلط الله عليهم رسولاً أتى أهل المدينة على راحلتين، وليس معه إلاّ جندي واحد من جنود الإسلام.

إن القوة لله، وإن القوة من الله، وإذا أثمر الشجر فإن شجرة الإيمان تثمر النصر. والله صادق وعده، وغالب على أمره، والله أكبر، والعزة لله ولرسوله والمؤمنين.

---

(1) سورة الحشر: 2.

٩

آيات الحساب ومشاهد يوم القيامة

يوم ينتهي كل شيء، لم يعد لأحد شأن يتلبث به، ولم يعد يعطف حميم على حميم، ﴿**يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾(١). ما هذا الخطب الذي يجعل الوالدة الحنون الرؤوم تذهل عن وليدها الرضيع؟ ما هذا الخطب الذي يسقط حمل الحوامل لهوله ورهبته؟ ما هذا الخطب الذي يسكر له من لم يعرف السكر قط، إنهم ليسوا بسكارى ولكن العذاب سكّر أبصارهم، وزعزع أفئدتهم، فلم يعودوا يدرون ما يدور حولهم، ولكنهم يرون أنفسهم منقادين إلى ذلك الاتجاه الذي يدعون إليه، ﴿**مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾(٢) مسرعين متزاحمين ﴿**كأنهم جراد منتشر**﴾(٣) ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾(٤) من الذلة والهلع مما يتوقعون من سوء الحساب. وكانوا يقولون: ﴿**أإذا كنا عظاماً نخرة**﴾(٥) فإذا هم يقولون: ﴿**يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا**﴾(٦) ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾(٧).

---

(١) سورة الحج: ٢.
(٢) سورة القمر: ٨.
(٣) سورة القمر: ٧.
(٤) سورة القلم: ٤٣.
(٥) سورة النازعات: ١١.
(٦) سورة يس: ٥٢.
(٧) سورة القمر: ٤٦.

غني عن القول أنني لم آت في هذا الكتاب بكل الآيات ذات المناسبات، والاّ لزم أن يستوعب هذا الكتاب حيزاً كبيراً من القرآن العظيم، ولكني اكتفيت بنماذج أرجو أن تليّن القلوب القاسية، وتثبت القلوب الخاشعة، وتزيد المؤمنين استبشاراً وإيماناً وتصديقاً.

وقد قرر رب القدرة وكرر في التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن الساعة لا تأتي الاّ فجأة، ﴿**ثقلت في السماوات والأرض**﴾[١] أي خفيت على أهل السماء وأهل الأرض ﴿**لا يجليها لوقتها إلاّ هو**﴾[٢] وفي الحديث: (إن الساعة لتقوم والرجل يحمل على ظهره الصنو ليغرسه)[٣].

يقول عزّ من قائل:

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[٤].

يقول سبحانه: يرونها فجأة فيبهتون، فلا يقدرون على تأخيرها أو منعها، ولا يؤجلون إلى وقت لاحق، فقد قضي الأمر ﴿**لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾[٥].

ويقول العزيز الحكيم:

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٧.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٧.
(٣) حديث شريف.
(٤) سورة الأنبياء: ٤٠.
(٥) سورة الأعراف: ٣٤.
(٦) سورة الروم: ١١ ـ ١٢.

نعم، الله بدأ الخلق من لا شيء، أليس الذي بدأه قادر على محوه وإتلافه، والذي خلقنا من عدم بقادر على أن يرجعنا إليه فيوفينا حسابنا؟ ويوم تقوم الساعة تكفهر وجوه المجرمين ويسقط في أيديهم ويعرفون أنه لم تعد في الوقت فسحة، ولم يعد لهم إلاّ ما قدمت أيديهم، وسيجدون حاكماً عادلاً لا يظلم، وكتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ولو كانت على موعد وتقدير لآمن الذين يمنون أنفسهم الأماني قبل موعدها، ولكنها تغير عليهم غارة فلا ينظرون إلاّ وهم فيها. يقول مالك يوم القيامة:

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾(1).

يتخاصمون في الأسواق على حطام الدنيا، وربما يظلم بعضهم بعضاً حال أهل الدنيا، وإذا الصيحة، وإذا الرجفة، وإذا الصاخة الكبرى، وإذا الطامة، كلها أسماء ليوم لا ينفع مال ولا بنون الاّ من أتى الله بقلب سليم، فكيف الوصية وكيف الرجوع إلى الأهل؟ هيهات هيهات، لا وصية ولا رجوع، جفت الأقلام وطويت الصحف.

يقول جلّ وعلا:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۞ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۞ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾(2).

---

(1) سورة يس: ٤٩ ـ ٥٠.

(2) سورة النازعات: ٤٢ ـ ٤٦.

يقولون: يا محمد! متى هذه الساعة التي تعدنا بها؟! فجاء الجواب ليس من عند محمد ﷺ، إنما من عند رب محمد الذي أرسله إليهم، فلو كان الجواب من رسول الله لقالوا: آتِ بها إن كنت من الصادقين. فأخرسهم الله قائلاً لهم: إذا جاء موعدها وأخذتكم بغتة لا ترون أنكم عشتم على هذه الأرض أكثر من عشية، وهي ربع يوم من آخر النهار، أو ضحوة، وهي أيضاً بقدر ساعات معدودة من أول النهار.

فإذا نفخ في الصور

من مشاهد ذلك اليوم المهول، النفخ في الصور، يقول تعالى:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾(1).

ويقول رب يوم القيامة:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ

---

(1) سورة الحاقة: ١٣ ـ ١٨.

بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

كل ما تقدم من آيات وضحها الله توضيحاً بلسان عربي مبين، ولا أدري أنني سآتي في شرحها بجديد، ولكن خلاصة ما فيها:

١ ـ إذا وقعت أهوال يوم القيامة فدمّر الله ما كان يعرفه الناس من الأرض من جبال، ومزق الله طبقات السماوات فرأيتها متهاوية متناثرة، وتأتي الملائكة تحمل عرش الرحمن ليقضي بين الناس، فلا يخفى عليه مما عملوا ما عملوا وراء الستور أو في ظلمة الليل البهيم ﴿**إن رسلنا يكتبون ما تمكرون**﴾(٢) فكل ما عملت نفس من خير أو شر تجده محضراً.

٢ ـ وإذا نفخ في الصور يصعق خلق الله في السماوات والأرض، يخرون واجفة قلوبهم لاهثة أنفاسهم، وهم في فزع كبير ورهبة ما سبق مثلها، إلاّ عباد الله المخلصين ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾(٣).

وإذا نفخنا النفخة الثانية إذا الموتى قيام ينظرون بأعينهم، ويظنون أنهم ما لبثوا غير يوم أو بعض يوم. ووضعت موازين الله ونشرت كتب الأعمال فهم فريقان: فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير، وحكم العادل، فلا يظلم أحد هذا اليوم، إنه يوم الفصل، وترى النبيين والشهداء ومن رافقهم من المؤمنين مستبشرين، فرحين بما أتاهم ربهم، قالوا: صدق الله ورسوله. وقيل الحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الزمر: ٦٨ ـ ٧٠.

(٢) سورة يونس: ٢١.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٣.

ويقول الله جلّ وعلا في مواقف العدل :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1].

ويقول سبحانه في وصف النفوس ذلك اليوم :

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[2].

وهكذا يعرف المجرمون ما قدموا ، ويستغربون أو يتحسرون على أن هذا الكتاب لا يغادر من ذنوبهم شيئاً ، فلم يجدوا إلاّ أن يستكينوا ويصمتوا في حزن عميق ﴿**وعنت الوجوه**﴾ وهم يرمقون المحاسِب من طرف خفي ، وهم في رجاء مشوب بالوجل ، فيأتيهم الحكم ﴿**وقد خاب من حمل ظلماً**﴾ فيوقن الظالمون أنهم قد استنفدوا طيباتهم في حياتهم الدنيا .

هذا يوم واحد ولكنه عن خمسين ألف سنة ، يصف الله فيه عباده فيبلغ في الوصف لعلنا نتذكر أو نخشى ، فيقول :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۞ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۞ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۞

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

(٢) سورة طه : ١١١ .

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ ﴾[1].

ففي ذلك اليوم ينسى الإنسان أخاه وأمه وأباه وزوجته وأحب أبنائه إليه، فهو في شغل شاغل، وروع مفزع، لا يلوي أحد على أحد ولا يذكر قريب قريباً ولا حبيب حبيباً. يقول عز من قائل:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۞ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾[2].

ولو رأيته في الحياة الدنيا وهو حامي حمى الأسرة، حجيجاً لجوجاً يعطي الناس صفحاً وينظر شزراً، وها هو اليوم منكسر الخاطر مهيض الجناح قد ذهب عنه ما كان به يصول ويجول، وها هو قد أتى الله فرداً كما خلقه أول مرة، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا ينال من جبروته، الخافض الرافع، الرؤوف الرحيم.

هذه الأمم التي سادت ثم بادت أين ذهبت؟![3]

منذ أن أنزل الله آدم وزوجه إلى الأرض وانتشار الذرية البشرية، والأرحام تدفع والأرض تبلع، والرب يرزق، ويعطي ويمنع، والرسل تترى بكتب الله المنزلة، والأمم تكفر وتكذب، والرب ينذر وينزل العقاب تلو العقاب، ولا متعظ ولا معتبر.

يقول الخالق البارىء، المصور:

﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِى

---

(١) سورة الكهف: ٩٩ ـ ١٠٢.

(٢) سورة عبس: ٣٣ ـ ٣٧.

(٣) سيطبع قريباً إن شاء الله، كتابي (أخبار الأمم المبادة في القرآن الكريم).

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١).

يتساءل العزيز الحكيم، ويكثر التساؤل في أثناء القرآن: ألم تروا، ألم تعلم، ألم يأن، ألم نهلك الأولين؟! بلى ربنا، كل هذا ظاهر من صنعك، وبديع خلقك، وبلَّغه رسلك، ولكن الكافرين لا يفقهون، فقد أتانا نبأ نوح وصالح وهود وشعيب، وأمم كثيرة، ﴿**ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾(٢).

وإذا فتح الله أبواب السموات والأرض بالرزق أُتْرِفت الأمة، وإذا أترفت جنحت إلى جانب المتع والملذات، ومن تطلَّب الملذات وقع في الحمى، والله دون حماه. يقول عزّ وجلّ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۞ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۞ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ (٣).

اليوم يجأرون، أي يصرخون من التوجع، وكانت لهم فسحة في حياتهم الدنيا، حين كانت قولة (لا إلّـه الاّ الله) تزن السموات والأرض، وكانت كلمتا (سبحان الله والحمد لله) تملأ ما بين السموات والأرض.

---

(١) سورة السجدة: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة المائدة: ٨٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٦.

أين أنتم من هذا الخير العميم والفضل الكريم؟! فاليوم يورث أهله جنات عرضهـا السماوات والأرض. فاليوم لا ناصر لكـم أيها الفساق، ولم يعد ينفع نفس ما تعمل أو تقول، فقد ختم الكتاب.

والناس في يومهم هذا (يوم الحساب) فـريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، فأما الذين آمنوا بربهم وأقامـوا الصلاة وآتوا الزكاة، وتسابقوا إلى فعل الخيرات، وجاهدوا في الله لتكون كلمـة الله هي العليا، هؤلاء يهديهم اليوم وينزلهم منزلاً يرضونه، أما الذين كانت أعينهم في غشاوة من ذكر الله فيقول فيهم:

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(1).

هكـذا الأشقى الـذي كذب وتـولّى، يصلى ناراً تتـأجج، لا يمـوت فيستريـح، ولا يحيى فيعـافى، يظل مـا شـاء الله يتقلب فيهـا، نعوذ بـالله العظيم وبـوجهه الكريم مـن مثل هذا، ونسـأله لنا ولمن آمن بـالله الهداية والرشاد والعفو والمغفرة، إنه رؤوف رحيم.

ويتساءل الإنسان، وما أكثر تساؤله

يتساءل فيقول: هذه الطبيعة ذات الجبـال والأنهار، حقولنا ومدننا، أعمالنا، شركاتنا، ما مصيرها؟! فيأتي الجواب من لدن خبير عليم بصير:

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾(2).

---

(1) سورة الأعلى: ٩ ـ ١٣.

(2) المعارج: ٨ ـ ٩

تذوب السماء فإذا هي كالسائل المذاب، وهمدت الجبال فإذا هي كالصوف المنفوش. ذلك اليوم تنفطر السماء أي تنشق:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ❁ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ❁ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ❁ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ❁ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ❁ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (١).

هذه القبة الزرقاء الجميلة المزدانة بالكواكب، والتي تطل منها الشمس، ويبزغ منها القمر، هذه السماء تنفطر يوم القيامة، فتتناثر نجومها، يتناثر هذا العقد النظيم الجميل، فلا ترى سماء ولا كواكب، ويذهب بهاؤها، والبحار المتلاطمة ذات الخير العميم والكنوز الكثيرة تتفجر فيسيح ماؤها فيختلط البر بالبحر وتضيع معالم الأرض فلا مسالك ولا ممالك، وتبعثر القبور فيخرج منها كالفراش المبثوث، حفاة عراة. في ذلك اليوم يظهر لكل أنسي ما قدمت يداه، فإذا كانت الأعمال رديئة يتذمر الانسان من هذا الفشل، فيقال أنت اغتررت في حياتك الدنيا فلم تعمل لمثل هذا ﴿**ما غرك بربك الكريم**﴾ إنه كريم لو عملت خيراً ضاعفه لك ولقاك اليوم نضرة وسروراً.

أما الأرض فلا تسأل أيها الإنسان عما يحدث لها:

---

(١) سورة الانفطار: ١ ـ ٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (١).

الأرض زلزلها الملك الديان لتخرج ما فيها، ورجت رجاً وألقت ما فيها وتخلت، سلمت ما بعهدتها، مما استودعها الله، فلا يخفى على الله خافية.

والجبال جزء من الأرض، ينقضها الله نقضاً ويجعلها هباء منبثاً، فتمتد لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً.

ويعلن رب الملأ على الملأ قصة القارعة وهي الساعة، فيسال لشد الانتباه، حتى إذا اشرأبت الأعناق لمعرفة الخبر قذف إليهم بعلم تقشعر منه الأبدان، وتتخلخل له القلوب. يقول عزّ وجلّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾(٢).

يقول جلّ جلاله: القيامة! ثم يسأل: ﴿**ما أدراك ما القارعة**﴾؟ التي

---

(١) سورة الزلزلة: ١ ـ ٥.

(٢) سورة القارعة: ١ ـ ٥.

تقرع القلوب، ثم يصف لك حال الناس في ذلك اليوم، والجبال كيف تكون كالصوف الذي نفش فلم يعد متماسكاً، أي كأنها أصبحت رماداً من شدة ما فعل بها. ثم يقول عزّ وجلّ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[1].

نعم، إن الذي جبّلها قادر على نسفها حتى تكون وما حولها قاعاً صفصفاً أي أرضاً طينية ملساء ليس فيها طلوع ولا نزول، ولا تعاريج، مستوية تتدحرج عليها الكرة، ليحشر عليها عباده ويقيم فيها منبر الحساب والعدل، إنه يوم تشرئب فيه الرؤوس وتشخص الأبصار، فمذنب وجل، ومؤمن مطمئن. ذلك اليوم:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[2].

﴿**يوم تمور السماء**﴾ أي تتحرك وتتماوج كحركة السحاب في السماء، فيطويها الرحمن طياً. ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾[3] خلق الله السماء من دخان، فها هي تعود إلى خلقها

---

(١) سورة طه: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) سورة الطور: ٩ ـ ١٥.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٤.

الأول. فماذا يقول المكذبون؟ ﴿**الذين يكذبون بيوم الدين**﴾(١) يقولون: ﴿**ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً**﴾(٢)، ولكن وراؤكم تركتم العمل الصالح، تركتم الحرث والزرع، فاليوم يوم الحصاد، فمن زرع خيراً يحصده، ومن زرع غير ذلك يحصد الندم والحسرة، نعوذ بالله من ذلك.

ألم تكونوا في خوض ولعب؟ خوض في هذا الحق الذي نزل من السماء، وهذا النبي المرسل، فيقول قائل منكم: كذاب، ويقول آخر: به جِنّة ويقول آخر: إنما يعلِّمه فلان الأعجمي!

فماذا ترون الآن؟ ألم تنذروا بهذا؟ ﴿**أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين**﴾(٣) دعُّوهم إلى جهنم، وأصل الدعّ: سوق الماشية وجمعها إلى الحظائر، يقال لها: دعّ، دعّ. فها أنتم اليوم مثلها تماماً، خرساً كخرسها، بلهاً كبلهها، لم تقدموا خيراً يقيكم هذا العذاب، هذه النار ﴿**التي وقودها الناس والحجارة**﴾(٤). فما رأيكم أيها الجهنميون؟ هل هذا سحر كما زعمتم أم أُعشيت أبصاركم فلا ترون؟ فإن لم تروا بعيونكم فإن أجسادكم تخبركم بحريقها.

وقالوا: كيف يبعث الله من في القبور؟ أليس قد خلقكم من لا شيء إطلاقاً؟ أألذي خَلَق من لا شيء ترونه غير قادر أن يعيد بقاياكم وهي شيء ملموس إلى أجساد تحمل أرواحاً ناطقة.

---

(١) سورة المطففين: ١١.

(٢) سورة السجدة: ١٢.

(٣) سورة الزمر: ٦٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٤.

نحن المسلمون نؤمن بهذا البعث بلا تدليل ولا تفسير، ولكن لا بأس من إيراد بعض الدلائل لزيادة الاطمئنان، وها هو نبي الله وخليله يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وهو المؤمن المصدق.

ورد في تفسيرات بعض الآيات متكرراً في ثنايا القرآن أنه إذا أراد الرحمن بعث من في القبور أرسل مطراً مخصوصاً منه لهذه الغاية، فإذا نزل لا يترك بقية وجدها من إنسان ولو ظفر أو كسرة عظم إلاّ نبتت كما ينبت العشب، فإذا تكاملت الأجسام لحماً طرياً مخلّقاً، أرسل الله إسرافيل فينفخ النفخة الأولى فترتجف تلك الأجسام فتسري فيها بإذن ربها الأرواح، ثم يأمره فينفخ النفخة الثانية ﴿**فإذا هم قيام ينظرون**﴾[1] يقول الله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[2].

أي أنكم تنبتون كما ينبت ذلك المرعى الذي به تكون الأرض حية، فتصيرون أحياء كحياة ذلك النبات، ﴿**ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد**﴾[3].

(وتم الفراغ منه بحمد الحميد في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٤١١ من الهجرة المباركة).

---

(١) سورة الزمر: ٦٨.

(٢) سورة فاطر: ٩.

(٣) سورة آل عمران: ٩.

جريدة المراجع

١ ـ المراجع القرآنية :

أ ـ القرآن الكريم .

ب ـ تفسير ابن كثير.

جـ ـ تفسير القرطبي .

د ـ الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة المقري .

هـ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .

و ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي .

ز ـ أسباب النزول للنيسابوري .

ح ـ فضائل القرآن للمؤلف .

ط ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي .

٢ ـ كتب الحديث وعلومه :

أ ـ كتب الحديث الستة .

ب ـ سنن الدارمي .

جـ ـ مسند الإمام زيد .

د ـ كتاب الإقتداء لمحمد جودة صوان .

هـ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث لمجموعة من المستشرقين .

و ـ المحلى بالآثار للإمام ابن حزم .

ز ـ موطأ الامام مالك إعداد أحمد راتب عرموش .

٣ ـ كتب اللغة وعلومها والسيرة النبوية :

أ ـ لسان العرب لابن منظور.

ب ـ الصحاح للجوهري .

جـ ـ تهذيب إصلاح المنطق للخطيب التبريزي .

د ـ المنجد في اللغة والاعلام .

هـ ـ معجم الكلمات الأعجمية والغريبة في التأريخ الإسلامي للمؤلف .

و ـ السيرة النبوية لابن هشام .

دليل الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ **معجم معالم الحجاز:** كتاب جغرافي تأريخي أدبي ضخم، يقع في عشرة أجزاء، تباع أجزاؤه مفرَّقة ومجتمعة.

٢ ـ **الأدب الشعبي في الحجاز:** كتاب أدبي، يقع في ٤٥٠ صفحة طبع للمرة الثانية.

٣ ـ **نسب حرب :** كتاب تأريخ ونسب، يؤرخ لقبيلة حرب التي شغلت حيزاً من تاريخ الجزيرة خلال ١٤ قرناً، طبع للمرة الثالثة.

٤ ـ **معجم قبائل الحجاز:** كتاب عن أنساب القبائل التي قطنت الحجاز من فجر التأريخ إلى يومنا هذا، ويتتبع بعض البطون التي نزحت إلى البلاد العربية الأخرى، مثل : الأردن، العراق، سورية، مصر، السودان، وغيرها. يقع في ٦٠٩ صفحات، طبع للمرة الثانية.

٥ ـ **على طريق الهجرة:** كتاب رحلات ومشاهدات لمنطقتي مكة والمدينة، ومواقع الغزوات التي حضرها الرسول ﷺ، وبه خرائط تنشر لأول مرة. طبع للمرة الثانية.

٦ ـ **معالم مكة التأريخية والأثرية :** معجم عن أماكن مكة وما حولها. طبع للمرة الثانية.

٧ ـ **رحلات في بلاد العرب :** رحلات ومشاهدات في شمال الحجاز والأردن، قبائلها وجغرافيتها ونبذ من تأريخها. طبع للمرة الثانية.

٨ ـ **الرحلة النجدية**: رحلة طويلة في أرجاء نجد الواسعة، أنساب قبائلها، وصف كثير من المدن والقرى، العمران، الحالة الاجتماعية، النهضة في الرياض، الفكر والصحافة والأدب هناك. طبع للمرة الثانية.

٩ ـ **طرائف وأمثال شعبية (من الجزيرة العربية)**: طبع للمرة الثانية ونفد.

١٠ ـ **بين مكة وحضرموت**: رحلات ومشاهدات في بلاد: عسير، نجران، الربع الخالي، قبائل اليمن وحضرموت، أنسابها وتأريخها.

١١ ـ **المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**: معجم يحوي جميع المواضع التي وردت في كتاب السيرة النبوية في جزيرة العرب، والأردن، والعراق، وسورية، ومصر، وغيرها، مزوَّد برسوم توضيحية.

١٢ ـ **بين مكة واليمن**: رحلات ومشاهدات للمنطقة الممتدة من مكة جنوباً بين البحر والسراة: قبائلها، جغرافيتها، تأريخها، عادات وتقاليد شعبها، وحالته الاجتماعية. مطبوع.

١٣ ـ **أخلاق البدو**: (في أشعارهم وأخبارهم) بحوث تبيِّن خلق البدوي، وحياته، مدعمة بأنماط لطيفة من أشعارهم، وطرائف من قصصهم.

١٤ ـ **على ربى نجد**: رحلات ومشاهدات في مناطق ما بين مكة والقصيم وعالية نجد.

١٥ ـ **قلب الحجاز**: أشهر أودية الحجاز، روافدها وقراها وسكانها.. إلخ.

١٦ ـ **أودية مكة المكرمة**: وبه ثلاثة ملاحق، جغرافية مكة، أوديتها وجبالها وسكانها، والمعالم في شعر كثيِّر، والمعالم في شعر عمر بن أبي ربيعة.

١٧ ـ **أمثال الشعر العربي**: كتاب يستقصي الأمثال الشعرية منذ نشأة الشعر العربي حتى نهاية القرن التاسع.

١٨ ـ **فضائل مكة، وحرمة البيت الحرام**: كتاب موضوعه من عنوانه، بيان لفضائل أم القرى، حرمتها، وأجر العمل فيها وعقوبة من استهان بها، أو الحد فيها. مطبوع.

١٩ ـ **معجم الكلمات العجمية والغريبة في التأريخ الاسلامي**.